أجمل قصائد الصوفية

مجدي كامل

Bibliotheca Alexandrina
0113717

الهيئة العامة لقصور الثقافة
الكتاب العربي

89
08

أحلى قصائد الصوفية

دار الكتاب العربى
سوريه ـ دمشق ـ الحجاز
ش مسلم البارودى ـ مدخل فندق الشموع ط ـ ١
هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ ـ ٢٢٢٣٨١١
ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة ـ شقة ١١
هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨
رقم الإيداع : ٢٧٠٦/ ٩٧
الترقيم الدولى : 3- 22 - 5346 - 977
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م

مجدى كامل

أحلى قصائد الصوفية

إهداء

إلى روح التصوف الكامنة
داخل كل منا.

مجدى

تقديم

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصرا لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الالهي شعرا، كما لوكانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجرالتصوف، وحتي اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالبا للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلي الله تعالي.

وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معني التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معني كلمة «التصوف» يطالعنا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بأخر مسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهذيب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعني هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم علي اخلاص العبادة لله، بلا تصنع ولاتكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلك يقتضي أن يكون الانسان مسلما حقا، وأن يكون مؤمنا صدقا، ويحسن الجمع بين اسلامه وايمانه، ويزينهما باحسانه واتقانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، وقبل أن يصير الحساب إلي غيرها، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهيأوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفية تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التواضع وهو واحد من أهم الاخلاق الصوفية التي يتحلي بها المبتدىء، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رموز صوفية كالخمر مثلاً ويقصد بها انوار الله والسكر ويقصد به سكر الارواح. وهناك ما يعرف عند الصوفية بتجلي الاسماء الالهية، وهي حالة من الترقي الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولاتمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أوكثير، فالتصوف الصحيح أساسه التقيد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامه، وكل من خرج علي حكم الله وأمره، فدعواه أنه متصوف دعوي باطلة، لايقرها شرع ولاعقل.

والتصوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولابلبس المرقعات أو تعليق المسابح، بل هو أن يعمر الإنسان صدره بالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فيه، والله جل جلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا».

وهناك كثير من ادعياء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكان تمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذى يقول في سورة الجمعة، «فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون».

ويظهر أن الذين حملوا علي التصوف وأهله تلك الحملة القاسية الشعواء، كانوا متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في ايمانهم واحسانهم، ولم يتقنوا العمل الجامع بين خيري الدنيا والآخرة. مع أن الأثر الاسلامي الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وعلي الرغم من أن البعض يرجع بأصول التصوف إلي أيام الصحابة، بل إلي أيام النبوة، الا أن الأكثر شيوعا بين الباحثين هوأن البداية الحقيقية للتصوف كنمط متفرد من التقرب إلي الله كان ابان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان شهدا ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعا.

والحب الصوفي هو أكثر ما يميز به شعر الصوفيين، ويجعل من أشعارهم قصائد نورانية تخلب اللب، وتستحوذ علي الفؤاد.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، ومايجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين: شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد.. واخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعًا وتراثًا انسانيًا خالدًا آملين من المولي عزوجل ان يحظي برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

شغلت قلبي..

أحِنُ بأطرافِ النهارِ صبابةً
وبالليلِ يدعوني الهوى فأجيبُ
وأيامنا تفنني وشوقي زائدٌ
كأن زمانَ الشوقِ ليسَ يغيبُ

« سمنون المحب »

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لأنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلي الله، ووصل فيها إلي منتهي المنتهي.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بانه «أحس كلام، وشعره لايدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والصبابة».

يروي «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلي قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببيتين من الشعر أنشدهما سمنون علي النحو التالي:

ولـيس لـي ســـــــواك حـظٌ فكـيـفـا شـئتَ فـامـتـحـنِّي
ان كـــان يرجـــو سواكَ قـلـبـي لانـلـتُ سُـــؤْلـي ولا الـتـــمنِّي

ويقـال انه لم يكد سـمنون ينشد بيتيه هذين، حـتي ابتلي باحـتباس البـول وذاك هو الامتـحان، وأخذ يتلـوي من الألم، ويدور في الكتاتيب، يرجـوا الصبيـة أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلا: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجعه عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتـأدب بآداب العبودية. وعندما أطلق بـوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفـرد سمنون المحب دون غيـره من شعراء الصـوفية بأن مـعظم أشعاره عـبارة عن ترانيم عشق قـصار، فـلا يوجد في شعـره قصيـدة مطولة، بل مقطوعـات متفـرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وسنقـدم هنا بعض المقطوعات الشـعريـة المتفـرقة التي تعـبر عن الارتبـاط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقا للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حنـين قلوب الـعـــارفين إلي الـذكـــر وتذكـــارهـم وقت المناجـــاة لـلســـرِّ
ولاعـْـــيش إلاَّ مع رجـــال قـلوبـهم تحنُّ إلـي التـــقْـــوي وترتاحُ لـلذكـــرِ
أُديرت كـؤوس للـمنايا عـلـيـهـمـو فـأغـفوا عن الـدنيا كـاغـفـاءِ ذي السُّكرِ
همـــومـهـــمـو جـــوالةٌ بمعـــسكر بـه أهـل ودِّ الله كـــــــالأنجم الـزهـرِ
فـأجـسـادهم في الأرض قـتْلي بحبـه وأرواحـهم في الحُجْـبِ نحـو العـــلا
فـمـــا عـرسـوا إلاَّ بقـرب حـبـيـبـهم ومـا عـــرجـوا عن مس بـؤسٍ ولا ضـرِّ
سكُـونُ إلي روح اليـــقين وطيـــبـــه كـما سكـن الطفل الرضيع إلي الحِجْـرِ
بكـيتُ ودمـع العـين للـنفس راحـــةٌ ولكـنَّ دمعَ الشـــوقِ يُنكـي به القـلبُ
وذكـــري لما ألـقـــاه لـيس بنـافـــعي ولـكنـه شـيء يهـــــيجُ بـه الكـربُ

فلو قـــيل مـــا أنت؟ لقـلتُ مـعـذَّبُ بنار مـواجـيـد يُضرِّمـهـا العـتبُ
بليتُ بمَنْ لا أســـتطيع عـــتـــابه ويعـــتُبني حـتي يُـقـال لي الـذنبُ

* * *

أفـــديكَ بل قَل أن يـفـديـكَ ذو دنف هل في المذلَّة للمـشـتـاق من عـارِ
بي منك شـوقٌ لو أنَّ الـصـخـر يحـمله تفطَّر الـصـخـر عن مُسَـتـوقَـدِ النارِ
قد دبَّ حـبُّك في الأعضاء من جسدي دبيب لـفظَي من رُوحي وإضْـمـاري
ولاتنـفـســتُ الا كنـت مع نـفـســي وكل جـارحـةٍ مـن خـاطري جـاري

* * *

ضَـاعِـفْ عليَّ بـجـهـدك البلوي وابلـغْ بجـهـدك غـاية الشكوي
واجْـهَـدْ وبالِـغْ في مـهـاجـرتي واجـهـرْ بهـا في الـسـرِّ والنجـوي
فـاذا بـلغتَ الجـهـدَ فيَّ فَلَمْ تتـركْ لنـفـسك غـايةً قـصـوي
فـانظرْ فـهل حـالٌ بيَ انتـقـلت عـمـا تُحب بحـالةٍ أخـري

* * *

وكـان قـلبي خـاليًـا قـبل حـبكم وكـان بذكـر الخلق يلـهـو ويمزَحُ
فلـمـا دعـا قلبي هـواك أجـابه فـلستُ أراه عـن فِنانك يـبـرحُ
رُمـيت ببـينٍ منك ان كـنتُ كـاذبًا إذا كنتُ فـي الدنيـا بغـيـرك أفـرحُ
وان كـان شيءٌ في البـلاد بأسـرها إذا غِـبت عن عـيني بعـيني يلـمحُ
فـإن شئتَ واصلني وان شئت لاتصلْ فلستُ أري قلبي لغـيـرك يصلحُ

* * *

تجـرَّعتُ من حـاليَـهِ نُعَـمي وأبْؤُسـا زمـانٌ إذا أمضي عَـزَالَيَـهِ أُحْـتـسي
فكم غـمـرة قـد جَّـرعني كـؤوسـهـا فـجَّـرعْتُها من بـحر صـبـري أكـؤُسـا

تدرَّعتُ صبري والتحفتُ صروفه وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي
خطوبٌ لو أن الشُّمَّ زاحمنَّ خطبها لساختْ ولم تدركْ لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدِّك عنِّي ليس الا لأن ذاكَ هواكا
فامتحنْ بالجفا صبري علي الودِّ ودعني معلَّقًا بِرجَاكَا

* * *

شغلتَ قلبي عن الدُّنيا ولذَّتها فأنتَ والقلبُ شيءٌ غير مفترقِ
وما تطابقتِ الأحداقُ من سِنَةٍ الا وجدتُك بين الجفن والحدقِ

* * *

ولو قيل طأ في النار أعلمُ أنَّه رضِيٌ لكَ أو مُدْنٍ لنا من وصالِكا
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطئتُها سروراً لأنّي قد خطرتُ ببالِكا

* * *

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صبابةً وبالليل يدعوني الهوي فأجيبُ
وأيامُنا تُفنَي وشوقيَ زائدٌ كأنَّ زمان الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ
جري فيَّ الهوي مُذْ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أمـــسي بـخـــدِّيَ لـلدمـــوع رســـومُ أســـفـــاً عـليك وفـي الفـــؤاد كـلومُ
والصـــبـــر يحـــسُنُ في المـواطن كلهـــا إلاَّ عـليـكَ فـــــإنَّه مـــــذمـــــومُ

* * *

أنت الحـبـــيب الذي لاشك فـي خَلَد منه، فـإنْ فـــقـــدتك النفسُ لـم تعشِ
يامـــــعطشـي بوصـــالٍ أنتَ واهـبُـــهُ هل فيك لي راحةٌ إن صِحْتُ، واعطشِي

* * *

كـــــــان لِي قـلـبٌ أعـــــيش بِـهِ ضـــــــاع منِّي في تـقـلُّبِـــــــهِ
رب فـــــارددِه عـليَّ فـــــقـــــد ضـــــاق صـــــدري في تـطلُّبِـــــه
وأغـــث مـــــــــــادامَ بـي رمـقٌ ياغَـــيَـــاتَ المســـتـــغـــيث بِهِ

* * *

ياواحد الحسن..

أحلي الهـــوي أن يطولَ الوجـــدُ والســـقمُ
وأصـــــدق الحب مـــــاحلتْ به التـــــهمُ
ليـتَ الـليـــالي أحـــلامًـــا تـعـــودُ لـنا
فـــربما قـــد شـــفي داءَ الهـــوي الحلمُ

« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان"، وكان ميلاده بها سنة ٦١٠هـ ويرجع أصله إلي احدي عوائل الكوفة، وتنقل كثيرا في البلاد، حتي وصل مصر وأقام فيها، وأنجب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني ـ كما كان ينادي ـ من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود،إلي الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية» الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتي هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتي انه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلي جمال وجودة قالبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

ياغائبين ووجدي حاضر بهم ... وعاتبين وذنبي في الغرام هم
بنتم فلا طرف الا وهو مضطرب ... شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ماكان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الحلوة:

أبدًا بذكرك تنقضي أوقاتي ... مابين سمّاري وفي خلواتي
ياواحدَ الحسنِ البديعِ لذاته ... أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتي
وبحبك اشتغلت حواسي مثلما ... بجمالِكَ امتلأتْ جميعُ جهاتِي

* * *

حسبي من اللذات فيكَ صبابةٌ عندي اشتغلت بها عن اللذاتِ
ورضاي أني فاعلٌ برضاكَ ما تختار من محوي ومن إثباتي

* * *

يا حاضراً غابت له عاشقه عن كل ماض في الزمان وآتِ
حاسبت نفسي فلم أر واحداً منها خلا وقتًا من الأوقاتِ

* * *

ويقول عفيف:

مَنَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالأَسْمَاء أنْ تُرَي دُونَ بُرْقُعٍ أَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَا وَهَدَتْنَا بِهَا لَهَا الأَضْوَاءُ
كَيْفَ بِتْنَا مِنَ الظَّمَا نَتَشَاكَي بِالقَوْمِي وَفِي الرِّحَالِ المَاءُ
كَمْ بَكَيْنَا حُزْنًا بِمَنْ لَوْ عَرَفْنَا كَانَ مِنْ شِدَّةِ السُّرُورِ البُكَاءُ
نحْنُ قَوْمٌ مِتْنَا وَذَلِكَ شَرطٌ فِي هَوَاهَا فَلْيَيْئَسِ الأَحْيَاءُ
وَأَقَامَتْ نُفُوسَنَا فِي حِمَاهَا لاَ بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْفُو الصَّفَاءُ
فَالمُلَبِّي إِذَا دَعَتْ هِي مِنَّا وَمُحِيبُونَهَا بِهَا الأَصْدَاءُ
يَا أَبَا الخَيْرِ قُمْ لَكَ الخَيْرُ فَاطْرِبْ مَسْمَعَ الفَقْرِ مِنْكَ ذَاكَ الغِنَاءُ
لاَتَفُتْ كَاسَكَ التِّي مِنْ لَمَاهَا هِي فِيهَا تَنَافَسَ النُّدَمَاءُ
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدَتْكَ كَأْسُكَ لَكِنْ رُبَّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
إِنَّمَا يَشْرَبُ التي تَسْلُبُ العَقْلَ نَدَامَي هُمُ لَهَا أَكْفَاءُ
أَسْكَرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكَرَتْهُمْ فِي ابْتِدَاهُمْ بِهَا فَتَمَّ الوَفَاءُ

فَجَزَاءُ مِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهُمْ وِفَاقٌ ... وَ وِفَاقٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ
قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيسُوا سِوَاهُا ... فَالْمُسَمَّي أُولِئكَ الأَسْمَاءُ

ويقول:

أَيُنْكِرُ الوَجْدُ أَنِّي فِي الهَوَى شَحِبُ ... وَدُونَ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لَهِبُ
وَمَاسَلَوتُ كَمَا ظَنَّ الوِشَاةُ وَلاَ ... أَسْلُو كَمَا يَتَرَجَّى العَاذِلُ التعبُ
فَإِنْ بَكَي لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوِيً ... فَلِي بِمَا مِنْهُ يَبْكِي عَاذِلِي طَرَب
نَاشَدْتُكَ اللهَ يَارُوحِي اذْهُبِي كَلَفًا ... بِحُبِّ قَوْمٍ عَنِ الجَرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا
لاَتَسْأَلِيهِمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ ... فَطَالَمَا قَدْ وَفَا بِالذِّمَةِ العَرَبُ
هُمْ أَهْلُ وُدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمُ ... وَإِنَّمَا وُدُّهُمْ لِي فَهْوَ لاَيَجِبُ
هُمْ أَلْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمُ ... أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهْوَ يَنْسَحِبُ
وَصَيَّرَتْ أَدْمُعِي حُمْرًا خُدُودُهُمُ ... فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَامَنُّوا وَمَا وَهَبُوا
هَلِ السَّلاَمَةُ إِلاَّ أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ ... وَجْدًا وَإِلاَّ فَبُقْيَايَ هُوَ العَطَبُ
إِنْ يَسْلُبُوا البَعْضَ مِنِّي فالجَمِيعُ لَهُمْ ... وَإِنَّ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا
لَوْ تَعْلَمُ العَذَبَاتُ المَايِسَاتُ بِمَنْ ... قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذَنْ مَا اخْضَرَّتِ العَذَبُ
وَلَو دَرَى مَنْهَلُ الوَادِي الذَّي وَرَدُوا ... مَنْ وَارِدُوا مَائِهِ لاَهْتَزَّهُ الطَرَبُ
إِنِّي لأَكْتُمُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا ... كَيْلاَ يحرِّقَهُمْ مِنْ زفرتي اللَّهَبُ
وَتُرْسِلُ الدَّمْعَ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ ... كَيْلاَ تُسَابِقَهَا فِي سَحِّهَا السُّحُبُ
كَذَا لِكُلِّ مُحِبٍّ غَيْرَةٌ لَهُمُ ... وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ
أَسَائِلُ البَانَ عَنْ مَيْلِ النَّسِيمِ بِهِمْ ... سُؤَالَ مَنْ لَيْسَ يُدْرِي فِيهِ مَا السَّبَبُ
وَتِلْكَ آثَارُ لِينٍ مِنْ قُدُودِهِمُ ... مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا القُضُبُ

وارحمتا للعاشقين..

يـاصـــــاح لـيـس علـي المحب مـــــلامـــــةٌ

ان لاح فـي أفق الـصـــبـــــاح صـــبـــــاح

لاذنب للـعـــــشـــــاق ان غلـب الهـــــوي

كـــتـــمـــانهم، فـنمـا الـغـرامُ، فـبـاحـــوا

« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهر وردي عادة بـ"الصوفي القتيل"، نسبة إلي مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج علي السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه. نظرا لما يجمعهم به من صداقة، دون جدوي، حيث أصر خصوم السهر وردي علي تنفيذ أمر القتل، وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهر وردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فعجلوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهر وردي التي لم تتجاوز الأربعين الا أنه ترك للمكتبة العربية والصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغربية»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقي كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهر وردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي امتداد للسلسلة التي بدأها الحلاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهر وردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهر وردي الذي ولد بـ«سهر ورد» من أعمال «زنجان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعذوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لايضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معًا احدي نورانيات السهر وردي، وهي بعنوان «وارحمتا للعاشقين»:

أبـــداً تحـــن الـيـــكـــم الأرواح ووصـــالكـم ريْحـــانُـهـــا والرَّاحُ
وقلـوبُ أهلِ ودادكم تشـــتـــاقـكمُ وإلي بـهـــاء جـــمـــالكم تـرتاحُ
وارحـــمـتـــا للعـاشـقين تحـمَّلوا ثقل المحـــبـــة والهـــوي فـــضَّـــاحُ

* * *

أهل الهـوي قسـمـان: قسـم منهمـو كـتـمـوا، وقسمٌ بالمحبـة بـاحـوا
فـالبـاحثـونَ بِسـرهم شـربوا الهـوي صِرفًا فـهزهـموا الـغرام فبـاحـوا
والكتـمـون لسـرهم شـربوا الهـوي ممزوجـةً فـحَـمـتْـهـمـو الأقـداحُ

* * *

بالســـر إن بـاحـوا تبـاحُ دمـاؤهم وكـــذا دمـــاء البـــائحين تُبـــاحُ
وإذا همـو كـتـموا تحـدَّث عنهـمـو عنـد الوشـــاة المدمعُ السَّـــفـــاحُ
وبدت شـواهدُ للسَّـقـام عليـهـمـو فـيـهـــا لمشكل أمـرهـم إيضـاحُ
خُـفض الجَناحُ لكم، وليس عليكمـو للصبِّ في خـفْـضِ الجناح جُناحُ
فـإلي لقـاكـم نفـســهُ مـرتاحـةٌ وإلي رضـــاكم طرفُـــهُ طمـــاح
عودو النُور الوصل من غسق الدجي فـالـهـجـر ليـل والوصـال صـبـاح

* * *

صـافـاهمـو فـصـفـوا له، فـقلوبهم في نـورها المشكاة والمـصـبـــاح
وتمتـعـــوا فـالوقـت طاب بقـربكم راق الشـــــراب وراق الأقـــداح
ياصـح ليس علـي المحب مـلامـــة إن لاح في أفق الـصـبـاح صـبـاح

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي كتمانهم، فنما الغرام، فباحوا
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح رباح
ودعاهمو داعي افحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفا، ودموعهم بحر، وشدة شوقهم ملاح
والله ماطلبوا الوقوف ببابه حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح
لايطربون لغير ذكر حبيبهم أبدا، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمو عنهم كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح وجميع أيام الملاح ملاح
قل للمحب إذا تهتك في الهوي ان التهتك في الغرام مباح
واخلع عذارك لاتبال بعاذل واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا
شربوا كؤوس الحب في حان الصفا فتمايلت سكرا بها الأرواح
بالانكسار تحملوا في حبه فبدا عليهم من رضاه سماح

* * *

خلع الحبيب عليهو خلع الرضا وأنا لهم من فضله الفتاح

ملأ الحبيب قلوبهم من نوره فشذاهمو من عطره فواح

تحيي الحبيب ذكرهم وبنورهم وتزول عند لقاهمو الأتراح

كل القلوب لهم تحن تشوقا وتحبهم، وبحبهم ترتاح

* * *

الوسيلة..

شـــربت بكاســـات الغـــرام ســـلافـــة

وصـــرت أنا الســـاقي لمن كـــان حـــاضـــرا

بهـا انتعـشت روحي وجـسمي ومـهـجـتي

أديـر عليـــهم كـــرة بـعـــد كـــرة

« عبدالقادر الجيلانى »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعني الدقيق للكلمة، وإنما كان ـ كما يري بعض المؤرخين ـ الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وانما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحا لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزيا.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتا، وهي تعبير ـ كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها ـ عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلي الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الذوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي ... وناد مني صحوي بفتح البصيرةِ

شهِدْتُ بأن الله مولي الولايةِ ... وقد مَنَّ بالتصريفِ في كُلِّ حالةِ

سقاني الهيِ من كئوس شرابِه ... فأسكرنى حقًا فَهِمْتُ بسكرتِي

وحكمني جمع الدِّنانِ بماحوي وكل ملوك العالمين رَعَيتي
وفي حاننا فأدخل تر الكأسَ دائراً وما شرب العشاق الا بَقيَّتي

* * *

رفعت علي من يدعي الحبَّ في الوري فقربني المولي وفزتُ بنظرةِ
وجالت خيولي في الأراضي جميعها وزُفَّتْ لي الكاساتُ من كل وجهةِ
ودقت لي الريات في الأرض والسما وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
وشاءُوسُ ملكي سار شرقا ومغربًا فصرت لأهل الكرب غوثًا ورحمةِ
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي يطاولني إن كان يقوي لسطوتي

* * *

أنا كنت في العُلِّيا بنور محمدٍ وفي قاب قوسين إجتماع الأحبةِ
شربت بكاسات الغرام سلافةً بها إنتعشت روحي وجسمي ومهجتي
وصرت أنا الساقي لمن كان حاضراً أدير عليهم كرةً بعد كرةِ
وقفت بباب الله وحدي موحداً ونوديت ياجيلاني: أدخل لحضرتي
ونوديت ياجيلاني: أدخُلْ ولاتخفْ عُطيتُ اللوا من قبل أهل الحقيقةِ

* * *

ذراعي من فوق السموات كُلِّهَا ومن تحت بطنِ الحوت أمددتُ راحتي
وأعلم نبت الأرض كم هو نبتةٌ وأعلم رمل الأرض عَدَّاً لرملةِ
وأعلم علم الله أحصي حروفه وأعلم موج البحر عَدّاً لموجةِ
وماقلت هذا القول فخراً وإنما أتي الإذْنُ حتي تعرفوا مِنْ حقيقتي
وماقلتُ حتي قيل لي قُمْ ولاتخفْ فأنتَ وليٌّ في مقامِ الولايةِ

* * *

أنا كنت مع نوحٍ أشاهد في الوري ... بحاراً وطوفانًا علي كف قدرتي

وكنت وإبراهيم ملقي بناره ... وما برد النيرانَ إلا بدعوتي

وكنت مع إسماعيلَ في الذبح شاهداً ... وما أُنزلَ المذبوحَ إلا بفتيتي

وكنت مع يعقوبِ في غشو عينه ... وما برئت عيناه إلا بتفلتي

وكنت مع ادريسَ لما ارتقي العلا ... وأُسكنَ في الفردوسِ أحسن جنةِ

* * *

وكنت وموسي في مناجاةِ ربه ... وموسي عصاه من عصاي استمدتِ

وكنت مع أيوب في زمنِ البلا ... وما برئت بلواه الا بدعوتي

وكنت مع عيسي وفي المهدِ ناطقًا ... وأعطَيْتُ دَاوداً حلاوةَ نغمتي

ولي نشأةُ الحبِّ من قبل آدم ... وسري سري في الكونِ من قبلِ نشأتي

أنا الذاكُر المذكورُ ذكراً لذاكرِ ... أنا الشاكرُ المشكورُ شُكراً بنعمتي

* * *

أنا العاشقُ المعشوقُ في كل مضمرٍ ... أنا السامعُ المسموعُ في كل نغمةِ

أنا الواحدُ الفردُ الكبُير بذاته ... أنا الواصفُ الموصوفُ ـ عِلْمُ الطريقة

مَلَكْتُ بلاد الله شرقًا ومغربًا ... وان شئتُ أفنيت الأنامَ بلحظة

وقالوا: فأنت القطب ـ قلت مشاهداً ... وتالِ كتابَ الله في كل ساعة

وناظُر ما في اللوح من كل آيةٍ ... وما قد رأيتُ من شهودٍ بمقلتي

* * *

فمن كان يهوانا يجي لِمحَلّنَا ... ويدخل حمي السادات يلق الغنيمةِ

فلا عالمٌ إلا بعلمي عالمٌ ... ولا سالكٌ الا بفرضي وسنتي

ولا جـامعٌ إلا ولي فـيـه ركـعـةٌ ... ولامنبـرٌ إلا ولي فـيـه خُطْبـتِي

ولولا رسـولُ اللهِ بـالعـهـدِ سـابقٌ ... لأغْلَقْتُ أبـوابَ الجـحـيم بعظمـتِي

مُـريدي لك البشـري تكون علي الوفـا ... وإن كنتَ فـي هَمٍّ أُغـشْكَ بِهِـمَّـتِي

مـريدي تمـسك بي وكن بـي واثقًـا ... لأحـمـيـكَ في الدنيـا ويومِ القـيـامةِ

وكن يامـريدي حـافظًا لـعـهـودنا ... أكن حـاضـر الميـزان يَوْمَ الوقـيـعـةِ

وإن شـحـتْ الميـزانُ كـنت أنا لهـا ... بعين عـنايات ولطـف الحـقـيـقـةِ

حَـوَائُـجكُم مُـقـضِـيـةٌ ـ غـيـر أنَّني ... أَريدُكُـمُـو تمشـون طُرْقَ الحـمـيـدةِ

وَأوصِـيكُمـو كـسـر الـنفـوس فـإنَّهـا ... مـراتب عـزٍّ عـند أهلِ الطـريقـة

ومَنْ حـدثـتـه نفـسـه بتـكبـرٍ ... تجـدهُ صـغـيـرًا في عـيـونِ الأقلة

ومن كـان في حـالاتـه مـتـواضـعًـا ... مع اللهِ ـ عَـزَّتْهُ جَـمـيـعُ البـريةِ

* * *

مريضة الأجفان..

وقـــفـــا بي علي الطلول قليـــلا

نتـــبـــاكي، بل أبك مما دهاني

الهـــوي راشـــقي بغـــيـــر ســـهـــام

الـهـــوي قـــاتلي بـغـــيـــر سنان

« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوه: انه القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه الزنديق والمشرك.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وأيضا عرف هناك باسم «ابن سراقة»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربى» بدون أداة التعريف تمييزا له عن القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، بفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة «بالكفر والالحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمائة قد لايفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخري، وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبري في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات المكية»، ويليها في الأهمية كتاب «فصوص الحكم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء، وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضا كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل «قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وانما كان رائدا من رواد مدرستهم الشعرية، يصدح في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها ماجاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» إحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائد ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فاذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلا فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي احدي رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضةِ الأجفانِ ... علّلاني بذكْرِها، علّلاني
هفت الوُرْق بالرياض وناحتْ ... شجْوُ هذا الحمامِ مما شجاني
بأبي طفلةٌ لعَوب تهَادَي ... من بنات الخد وبين الغواني
طلعتْ في العيانِ شمسًا، فلما ... أفلتْ أشرقتْ بأفقِ جَناني

* * *

ياطلولاً برامةٍ دراسات ... كم رأتْ من كواعبٍ وحسانِ
بأبي ثم بي غزالٌ ربيبٌ ... يرتعي بين أضلعي في أمانِ
ماعليه من نارها فهي نور ... هكذا النورُ مُخمدُ النيران

* * *

يا خليليَّ عرجا بعياني ... لأري رسْم دارها بعيانِي
فاذا ما بلغتما الدار حُطا ... وبها صاحبيَّ، فَلتبكياني
طال شوقي لطفلةٍ ذات نشرٍ ... ونظامٍ ومنبرٍ وبَيانِ

* * *

من بناتِ الملوك من دار فُرسٍ ... من أجلِّ البلاد من أصْبهانِ
هي بنتُ العراق بنتُ إمامي ... وأنا ضدّها سليلُ يماني
هل رأيتهم ياسادتي أو سمعتم ... أن ضدَّيْن قطُّ يجتمعانِ

* * *

وقـــفـــا بي عـلي الطـلولِ قـلـيـــلاً نـتـــبـــاكـي، بـل أَبْكِ مـمـا دهانـي

الهـــوي راشـقـي بغـيـــر سـهـــامٍ الهـــوي قـــاتـلي بغـــيـــر سـنانِ

عـــــرفـــــاني إذا بـكـيـتُ لديـهْـــا تُســـعـــداني عـلي البُكـا تُســعـــداني

* * *

وأذكـــرا لـي حـــديـث هنـدٍ ولبـني وسـلـيْـــــــمي وزيـنـبٍ وعـنـانِ

ثـم زيدا مـن حـــاجـــــر وزرود خـــبـــراً عن مـــراتـع الغـــزلان

واند بـاني بشـــعـــرِ قـــيسٍ وليـلي أكـــؤُسًـــا للهـــوي بـغـــيـــر بَنانِ

والهـــوي بيـنـنَا يســـوقُ حـــديـثًـــا طيـــبـــا مـطربـا بغـــيـــر لســـانِ

لرأيْـتم مـــا يذهـبُ العـــقـلُ فـيـــه يمنٌ والـعـــراقُ مـــعـــتنقـــانِ

* * *

كـــذب الشـــاعـــر الذي قـــال قـــبلي وبأحـــجـــار عـــقْله قـــد رمـــاني

« أيهـــا المنـكح الثـــريَّا سُـــهْـــيـــلاً عَـــمْـــرَكَ الله كـــيف يلتـــقـــيـــان

هي شـــامـــيـــةٌ إذا مـــا إســـتـــهـلَّت وسُـــهـــيـلٌ إذا إســـتـــهلَّ يـمـاني

* * *

إلهي..

إلـهي ضـــــاع عـــــمـــــري في غـــــرورٍ
وفـــي لـهـــــــــــوٍ وفـــي لـعـــبٍ يـطـولُ
إلـهـي غـــــــافـــــــر الـزلاتِ يـا مَـنْ
تـعـــــالي، مـــــالـه أبـدا مـــــثـــــيلُ

« أحمد البدوي »

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥هـ ، صاحب الطريقة الأحمدية التي كان لها أعمق الأثر في تاريخ مصر دينيا وإجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلي مكة حيث تلقي علي يد معلميها القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلي العراق ثم إستقر به المقام في مصر التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغذارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه، وعندما استقر فى طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلي مدينة كبري.

ومن أهم الاثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهال إلي الله وإستعاذة به. وأيضا» أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردًا، وتربتط الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر الله والصلاة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلـهي أنـت لـلاحـسـان أهـلٌ ومنـك الجـود والفـضل الجـزيلُ
إلـهي بـات قـلبي فـي هـمـوم وحـالـي لا يُسـرُّ بـه خـليـلُ
إلهـي تب وجُـد وارحم عُـبَـيْـداً من الأوزار مـدمـعـهُ يسـيلُ
إلهـي ثوب جـسْـمي دنسـتْـهُ ذنوبٌ حِـمْـلُهـا أبـدًا ثقـيـلُ

* * *

إلهـي جُـد بـعـفـوك لي فـاني عـلـى الأبواب منـكـسـرٌ ذليـلُ
إلـهي حُـفْني بـاللـطف يـامـن له الـغـفـرانُ والفـيـضُ الجـزيلُ
إلهـي خـانـني جَلَـدي وصـبـري وجـاء الشـيُب واقـتـربَ الرحـيلُ
إلـهي داوني بـدواء عـفـوٍ بـه يشـفي فـؤادي والـغـليـلُ

* * *

إلـهـي ذاب قـلـبـي مـن ذنـوبـي ومن فِـعْلِ القـبـيح أنا القـتـيلُ
إلـهـي رَدِّنـي بـرداءِ أنـسـي وألـبـسْـنِي المهـابةَ يـاجـليـلُ
إلـهي زحـزِح الأسـواء عني وكنْ لـي ناصـرًا نِـعْمَ الـكفـيـلُ
إلهي سـيـدي، سندي وجـاهي فـمـالي غـيـر عـفـوَك لي مـقـيلُ

* * *

إلهي شَـتـتْ جـيْش إصطبـاري همـومُ شـرحُـهـا أبدًا يـطولُ
إلهي صـرتُ من وجـدي أُنادي أنـا العـاصي المسئ، أنـا الـذليـلُ
إلهي ضـاع عـمـري في غـرور وفي لـهـوٍ وفي لـعـبٍ يـطولُ
إلـهي طـالمـا أنـعـمْتَ منَّا بجـودٍ منك فـضـلاً يسـتطيلُ

* * *

إلـهي ظـاهـرًا أدعـوك ربي كـذلـك بـاطـنًـا أنـت الجـلـيـلُ
إلـهي عـافـني من كـلِّ داءٍ بجـاهِ مُـحـمـدٍ نعْم الخليلُ
إلـهي غـافـر الـزلاَّت يامنْ تعـالـي، مـالـه أبدا مـثـيـلُ
إلـهي فـاز مـن نـاداكَ ربيٌّ أتاه الخـيـرُ حـقًـا والقـبـولُ

* * *

إلـهي قـلْتَ ادعـوني أَجِـبكُمُ فـهـاك العـبـدُ يدعـو ياوكـيلُ
إلهي كـيف حـالي يـوم حَـشْـرٍ إذا مـاضـاق بالعـاصي مـقـيلُ
إلـهـي لا الـه سـواكَ ربيّ تعـالي، لاتُمـثـلهُ الـعـقـولُ
إلهي مـسني ضـرٌّ فـأضـحي به جـسـمي يُبلبله النحـولُ

إلـهـي نجـنـي مـن كـلّ كـــــــربٍ ويسّـــرْ لـي أمـــوري بـاكـــفـــيلُ

إلـهـي هـذا الأوقـــــــاتُ تمـضـي بـأعـــمـــــارٍ لـنا، وبـهـــا تـزولُ

إلهـي والنـي خـــيْـــراً، وأحـــسنْ خـــتـــامي عندمـــا يأتي الـرســولُ

إلهـي ياســـمـــــيعُ أجبْ دعـــائي بطـه من تـسـيـــرُ له الحـــمُـــولُ

فـــصـلٍّ عليـــــه ربـيٍّ كلُ وقـتٍ صـــــــلاةً لاتحـــــولُ ولاتـزولُ

وآلٍ والصّـــحـــاب ذوي المـعـــالي وفي طـي الكلامِ هُـمـــو الفـــحُـــولُ

* * *

أطيار الجناح..

بكت عيني غداةَ الدمعِ دمعًا
وأخري بالبكا بخلتْ علينا
فعاتبتُ التي بخلتْ علينا
بأن غمضتها يومَ التقينا!

« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعلما من الأعلام البارزين في التصوف والوالنورطوعا ويسعدني بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختاره فلسفة روحية لفكره، وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحياها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلي الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، الا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المثنوي» أشهر كتبه علي الاطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ماجاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية الا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلته العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمثنوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلاطين.

ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المثنوي»: هذا الكتاب أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان

الجنان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون، ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في كتابه «المثنوي» إنعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف الرقيقة، والإبانة عن الخفايا من الحكم والحظات البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الالهي رسالة العشق من البداية إلي النهاية، وعلي حد تعبيره «لوخلا قلب الانسان من العشق لم يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لايعدو أن يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الرومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال للفظي والروحي، ونذكر منها هذا الأبيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعًا ... وأخري بالبكا بخلتْ علينا
فعاتبتُ التي بخلت علينا ... بأن غمضتها يوم التقينا!
فديتُك، ياذا الوحي آياته تتري ... تفسرها سرًا وتكني بها جهرا
وأنشرت أمواتًا وأحييتهم بها ... فديتك ما أدراك بالأمر وما أدري!
فعادوا سكاري ـ في صفاتك ـ كلهم ... وما طعموا إثمًا ولاشربوا خمرا
ولكن بريقَ القربِ أفني عقولهمُ ... فسبحانَ من أرسي وسبحانَ من أسري
سلامٌ علي قومٍ تنادي قلوبهم ... بألسنة الأسرارِ: شكرًا له شكرا
فطوبي لمن أدني من الجلد دَلوَه ... وفي الدلوِ حُسْنُ يوسفَ ـ قال: يابشرا!!
يطالع في شعشاع وجنه يوسف ... حقائقَ أسرارٍ يحيطُ بها خبرا
تجلي عليه الغيب وأندك عقلُه ... كما اندكَ ذاكَ الطور استهدمَ الصخرا
فظل غريقُ العشقِ روحًا مجسمًا ... ونورًا عظيمًا لم يدر دونه سترا

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملا معه فكره، ومواقفه، وايمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز علي الانسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضا «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحا من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عبرة حارت لمعناها العقولُ ... عن رسولِ الروم في أرضِ الرسولِ

جاء يطوي البيدَ سعيًا والحضر ... يسأل الأحياءَ عن قصرِ عمر

أين قصر ضم خير المالكينَ ... والهدي والطهر والنور المبين

قصره لاشك مرفوع البناءِ ... أنصفوا لو شيدُوه في السماءِ

قال بعضُ الناس: ياضيفَ العربْ ... قصرهُ فوقَ الدراري والذهب

* * *

لاتراه في الملا عين البصر ... بل تراه في العلا عين الفكرْ

في سماء المجد مرفوع المنار ... ركنهُ زهدٌ وذلٌ وانكسارْ

التآخي فيه والعدل بناء ... ومبانيه الناس غش ورياءْ

كل من أغلق عينيه هواه ... فهو في الظلمةِ حاشا أن يراهُ

منزل الأرواح صدقٌ ووفاء ... منزل الأجسامِ لونٌ وطلاءْ

* * *

مالقلبي بات بالشكوي ينوح ... إن قومي حالهم من قوم نوح

أسد لوا جهلاً علي النور الحجابا ... بل أصموا السمع واستغشوا ثيابا

إن نار الحقدِ في قلب الحسودِ ... حرمته ظل جناتِ الخلودِ

ومـــضي الرومي في شـــوق عظيم يســـأل العـــابرَ عنه والمقـــيم
فـــأهاج الشـــوقَ منه والهـــيـــامْ صـــوتُ أعـــرابيـــة بين الخـــيـــامْ

* * *

تحت ذاك النـخل في حـصـن حـصينٍ حي مـــولانا «أمـــيـــر المؤمنين»
قـــد تخلي عن جـــوادٍ ومـــتـــاع ينـشـد الـكنزل المرجي في البـقـاع
قـــال: يا ســـبـحـــانه رب الوجـــودِ أين ذاك الـقـــصـــر أو أين الجـنودْ؟
لم أكن من قبل أخـشي قـيـصـيـراً لا، ولا سطوة آســـاد الشـــري
فلـمـــاذا أوهن الخـــوفُ جناحي من أمـيـــر نامَ في غـيـــر ســـلاحِ؟

* * *

أحـــصـــون يا إلـهي وقـــلاع تتـــواري خلف هاتيكَ الـرقـــاع
من يخف سلطان ذي العرش المجـيـدْ خـــافـــه كـل قـــريب وبـعـيـــدْ
وبـخـــوف الله فـــاز المؤمنون حـيـث لاخـوف ولاهم يحـــزنون
ملك الـعُـربْ جـمـيـعـا والعُـجمْ نائـمٌ في غـــيـــر جندِ أوحـــشمْ
عِـبَـــرةٌ تروي لجـيـلٍ بعـد جـيـلْ نـام ظـلُ الله فـي ظـل الـنـخـــيـلْ

* * *

وصـــحـــا الخطاب من بعـــد المنامْ مـثل صـحو الـشمس من بـعد الغـمـامْ
أقـــبل الـضـــيف وأهـداه الســـلامْ وســـــــلام الـود يـتـلـوه الـكـلامْ
ســـأل الخطـاب ذا الجـــاه العـظيـمْ عن صـفـات المبـدعِ البـر الرحـيمْ

تسكن الأرواحُ أجسادَ الأنامِ وهي نور كيف تحيا في الظلامِ
قال سبوح إله الملكوتْ فاطر الأكوان قد سي النعوتْ

* * *

أسكن الأرواحَ أو كارَ الصورْ فاستجابت حين ناداها القدرْ
هذا الأرواح أطيار الجنانِ فارقت أوطانها للامتحانِ
هي كالعطُر طوته الزهراتُ وهي كالفكر حوته الكلماتُ
إنما الألفاظُ نطق ورسومْ والمعاني روح هاتيك الجسومْ
هبطت من وقتها من لازمانْ وثوت في أرضِها من لامكانْ

* * *

عالمُ الغيبِ له السر المصونْ أمره في خلقِه كن فيكونْ
كلم الورد بسر فابتسمْ عن أريج علم الطير النغمْ
وهو أيضا قال سراً للحجرْ فجلا منه عقيقا للنظرْ
وهو قد أفضي بسر للسحاب فارتوت من فيضه حمر الهضابِ
عندما أوحي بسرٍ للترابْ صار انساناً له الكون استجابْ
ذلك العذب الفرات الهاطلُ في فم الحيات سم قاتلُ
ليس يحبو جوهر العلم النقاءْ غير أصداف قلوب الأولياءْ
جدد الخبزُ حياةً ونماءْ حينما أصبح للحي غذاءْ
ومتي أذعن للبحر السحابْ صار بحراً موجه طامي العبابْ

صـاف مـحـبـوبك إن رمت الصـفـاءْ وأفن في المحـبـوبِ إن رمت البـقـاءْ

وتجلي سـره لـلأنبـيـاءْ فـتـسـامـوا فـوق مـعـراج السـمـاءْ

* * *

كـم عـروسٍ جلـيـت للـنـاظريـنْ وهـي لاتهـدي لـكـل الخـاطبـينْ

إنزع الأصـبـع عن سـمع اليـقينْ تسـتـجب روحـك للـروح الأمينْ

قـيـد الجـسم بهـا انشـق الحـجـرْ ويد الـروح لهـا انشـق القـمـرْ

قـطر نـيـسـان إذا مـا أمطـرا في فم الأصـداف أضـحي جـوهرا

كُنْ جـليـسَ الأنبـيـاءِ المرسلـينْ في كـتـاب اللـهِ ربِ العـالمينْ

* * *

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحـــبـــوبُ في كـل وجـــهـــةٍ
فـــشـــاهـدتُه في كـل مـــعني وصـــورةِ
وخـطـابـني مـني بـكـشـفِ ســـــــرائري
فـــقـــال أتدريَ مـنْ أناقـلتُ مـنيـــتي

« إبراهيم الدسوقي »

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٣٣ ـ ٦٧٦هـ) ينتهي نسبه إلي الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من أجلاء مشايخ مصر، وطريقته "البرهامية" تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللد سوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفي آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوي والشيطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولايزال مسجده يقصده الالاف حتي يومنا هذا فقد لخصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبده فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولاتفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المفضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة، وعذوبة. وهاهي ذى قصيدة الدسوقي النورانية «سقاني محبوبي»:

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ فشاهدته في كل معني وصورةِ
وخاطبني مني بكشفِ سرائري فقال أتدرى من أنا قلتُ منيتي
فأنت منائي بل أنا أنت دائمًا إذا كنتَ أنتَ اليومَ عينَ حقيقتي

* * *

فقال كذلك الأمر لكنه إذا تعينت الأشياءُ كنت كنسخةِ
فأوصلت ذاتي باتحادي بذاته بغير حلولٍ بل بتحقيق نسبتي
فصرت فناءً في بقاءِ مؤبدٍ لذاتٍ بديمومةٍ سرمديةِ

* * *

ويبني عني فأصبحت سائلاً لذاتي عن ذاتي لشغلي بغيبتي
وأنظر في مرآة ذاتي مشاهدًا لذاتي بذاتي وهي غايةُ بغيتي
فأغدو وأمري بين أمرينْ واقفٌ علومي تمحوني ووهمي مثبتي

* * *

خببأتُ له في جنةِ القلب منزلاً ترفع عن دعدٍ وهندٍ وعلوةِ
وما شهدت عيني سوي عين ذاتها وإن سواها لايلم بفكرتي
بذاتي تقوم الذات في كل ذروةٍ أجددُ فيها حلةً بعد حلةِ

* * *

سقانيَ محبوبي بكأس المحبةِ فتهْتُ عن العشاقِ سكرًا بخلوتي
ولاح لنا نور الجلالة لوأضا لصُم الجبال الرسايات لدُكّتِ
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضرًا أطوفُ عليهم كَرَةً بعد كرةِ

* * *

وناد مني سرًا بسر وحكمةٍ وأن رسول الله شيخي وقدوتي

وعـاهدني عـهـداً حـفـظتُ لعـهـده وعـشتُ وثيـقًـا صـادقًـا بمحـبـتي
وحكّـمني فـي سـائر الأرض كُلِـهـا وفـي الجنِّ والأشـبـاح والمرديّـةِ

* * *

وفي أرض صين الصين والشـرق كُلِّهـا لأقـصـي بلاد اللـه صـحَّت ولايـتي
أنا الحـرف لا أُقـرأ لـكل مـناظـرٍ وكلُّ الـوري من أمـر ربِّي رعـيَّـتي
وكم عـالـمٍ قـد جـاءَنا وهو منكرٌ فـصارَ بفـضل اللهِ من أهـل خـرقـتي

* * *

ومـا قلـتُ هذا القـول فـخـرًا وإنما أتي الإذن كـي لايجـهلون طـريقـتي
غنيت عـن الدنيـا بفـيـضِ عطـائه وأيُّ عـطاياهـم يدانـي عـطيّـتي؟
وصـرتُ علي بُعْـدِ المسافـاتِ واصـلاً لأدني دنُّـو في إرتـفـاعي لـغـايـتي

* * *

فـوجه الحـبـيب الحقِّ مـشرق وجـهـتي ونورُ الحـبـيـب الحقِّ سـاطع قـبـلتي
وفي القلب أشـواقٌ يتـرجع فـيـضُـهـا عن الألقِ السـامي إلي قُـدْسِ حـضْـرةِ
شـهـدت وشـاهـدنا، وطابت نفُـوسنا وقـد لـذَّ لي ذليٌّ إليـه وخـشـيـتي

* * *

أحـنُّ عـلـي ذلٍّ، وأهـوي عـلـي هـدي وأسـري علـي علـم لأنوارِ طـلعـةِ
رضـيتُ به حـتي دخلت رياضـه فـأنعـم بهـا من روضـة أيِّ روضـةِ
ومـا لـذة العـشـاقِ إلا يـقـينهُم بشـمل جـمـيع بـعـد طـول تشـتتِ
وأغـسلُ قلـبي من سـواك، ولم أجـد لنـفـسي إلا نـور ذاتك بغْـيـتي
تعـاليتَ بـالعطْـفِ الكريمِ، رعـاية فَـبـارَكْـتَ زلاتَي وآمَّنْـتَ روعـتي

* * *

تعشقت نور الله..

إذا قـــــيل لي أطلب قلت ربي مطلبي

وان قـــيل لي اشـــرب قلت أنواره كـــأسي

وكل عـــهـــود قـــد تنكس أصلهـــا

ولكن عـــــهـــــد الله باق بلا طمس

« الشيخ على عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مانظمه من أشعار في الحب الالهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وانما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية ـ إذا جاز التعبير ـ وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي الفؤاد. أنظر اليه يقول:

وان الوردَ يذبُلُ بعد وقت ... ووردُ الحب كانَ به ذُبولي
وريُّ الناس من ماء ولكنْ ... شرابُ الحب يذكي منْ غليلي
أداري الحبَّ حتي لويراني ... أخو وجد تشككَ في نُحولي
وبي نارٌ لو استقصي لظاها ... لحقر وجدَه وحَذا سبيلي
ولي بالوجدِ سرٌ لا يُضَاهَي ... ومَا أنَا في المحبَّةِ بالهزيل

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلا حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاما فقط (١٨٩٤ ـ ١٩٤٨م) إلا أنه ترك آثارا عظيمة تدل علي ماكان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيرا، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علما من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مانظمه من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هوي نفسي، فعشتُ بلا نفْسِ وجافيتُ أنسي، فانحدرتُ إلي الأنْسِ
ولم أُبد أمري للعباد، فطالما كتمتُ الذي ألقي عن الجنِّ والإنْسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبتّي وعانيتُ آياتِ اليقين بلا لبْسِ

* * *

وعشتُ زماني لست أحفل بالوري وكيف، وقلبي هام في مشهد القُدْسِ
وعلمت غيري ما أفادَ من الهُدي فلم يبْقَ ذو فهمٍ لديَّ علي طمْسِ
إذا وُسِّد الناسُ القبورَ، فإنني جعلتُ التقي والذكر بين الوري رمْسي

* * *

ولم أخْشَ من بأس ولم أخشَ طاغيًا ومن يخشَ ذات الله لم يَرَ من بأسِ
وهل غيُر ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجّتُ بالقرآن نفسي عقيدةً أصونُ به نفسي من الزَّيْغ والدسِّ
وما اتخذت روحي سوي الله غايةً فَتم الهدي للروح والقلب والحسِّ
وإن شرب الناس الطِّلا وتصببوا فسُنَّةُ خلق الله في شربها كأسي

* * *

وإن رفع المثرون عُجبًا رؤسهم رفعتُ بذكر الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمس اهتداءً ليومهم جعلتُ رضا ربِّي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده وإن غرسوا زرعًا لنيل حصادِه

* * *

تعشقتُ نور الله وهو بصيرتي وقد وضح البرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدت روحي جلالكَ وإرتقتْ تجّردتُ عن معْناي في عالمِ الحسِّ
أحبّك ياربي محبّةَ موقنٍ ومن قوةِ الايمانِ أُصبح أو أُمسي

* * *

فـؤاديَ قـد أبعدتُ عـن مشـهـد الوري فطُهّــر في لجـواكَ من ظلمـةِ الرِّجْسِ
أطوف عـلي الأبـوابِ قلـبيَ مُـــوجَعٌ وليس سـوي رحـماكَ لـلقلبِ من نِطْسِ
وأعـــد مني فـي الحبِّ علـمي بقـــدْرِه فليـس غـرامي فـيـــه يدرك عن قـيْسِ

* * *

ولم أعــشق الـدنيـا فـتلك مـجـازة تهيئُ لـلأخـري وفي فـوتهـــا عـرُسي
لقـاوُك يـارحـمنُ عـيـــدي وعُـدتي ونُورك غـيـثي وهو لـي في الوري أُنسي
وبحْـرُك منه قـد لقـيـتُ جـواهري بشـاطئـه سُـفـني علي لُجِّـهِ غَـطسي

* * *

وطيبُ الـوري ورْسٌ ومـسك وعنبـرٌ وطيـبي من مـحيـاك أسـمي من الورسِ
ولستُ مـن الدنيـا، أمـيلُ إلـي العـلا فـإنَّ عُـلا الدنيـا لأصـحـابه يُـنسي
أُمـتع أعـضـائي بـذكـركَ دائمًـا وهل غـيـرُ ذكْـر الله يسكنُ فـي نفـسي

* * *

وكُلُّ رجـائي أن أحـبك صـادقًـا إذ الصـدقُ في الوجدان مـرتبة القُـدْسِ
ومـا فـضلهُ وقـفٌ علي أيِّ عـالمٍ وحـقك مـا حُـدَّ العطاء علـي جنس
إذا رضي الرحـمن عن قلـب عَـبْـده جرت مـركَبُ الأقدار معـه علي اليبْس

* * *

تـخـلَّ ولاتحـــفـلْ بجـنٍّ ولا انـسِ وعشْ في هوي الرحـمن تسعـدُ بالأنْسِ
وأقـبـل علي مـولاك بالـقلب مـخلـصًـا وأسلـمْ وسلـم واتَـجَّـــــه
وخُـذْ لك بـالايمان أصـدقَ وجـهـة وطهـر بهـا نفسًـا عن الـغي والرجس

* * *

تجـرد تجـدْ مـولاكَ أكـبرَ نـاصـرٍ وفـوض له مـاكـان في الغـد والأمْسِ
حـيـــاةُ الوري حُلوٌ ومـــرٌ وإنما حـلا المرءُ بالتوحـيـد من رقـة الحسِّ
ومـن لايـري إلا الإلـه مـــــــراده حرامٌ عليه الخوضُ في العرشِ والكرسي

* * *

ومن يـتـــعـــــشـق نُورَه وجـــلاَلَهُ فليس له التـشـبـيـبُ بالبـدْرِ والشـمسِ
وانـك لـو عظـمْـتَ ديـنَك عـــــالمًا وعـــالمت بالحـــسْني وأدَّبـتَ للنَّفسِ
وكنت عـلي الأحـداثِ بالله راضـيًـا سـواءٌ عليك المـوتُ أو سـاعـةُ العُـرْسِ

* * *

سـعـدْتَ من الدنيـا بِرِبِّك مـحُـسنًا ونلـت من الأخـري عـطاء بلا بـخْسِ
يقـولون لي من أنت؟ قـلتُ: مـوُحـدٌ إلـي ربه يـســـعي ولم يَـرَمن بـأسِ
إذا قـيل لي أطـلبْ قلـت ربِّيَ مطلـبي وإن قـيل لي أشـربْ قلتُ أنواره كـأسي

* * *

وكلُّ عـهـــودٍ قـــد تنكسَّ أصلهـــا ولكـنَّ عـــهـــد الله بـاقٍ بلا طَـمْسِ
سلوني عن الـعـشـاق قـد ذقتُ حُـبـهَم وإنـي لهـم رأسٌ إذا كـــان مـن رأسِ

* * *

ومـا هم سـوي أعضـاء جسْـمي وبزتي أصـافـحـهم مـا شـئتُ لـكن بلا لمسِ
ومـاحـيلتي إلا انـكسـاريَ في الحـمي وإن إنكسـار القلب يـكشف عن قـدسي
وحلوُ الـهـوي عندي لقـاء أحـبـتّي ومرُ الهـوي عندي وفي هجرهم تـعْسي

* * *

وأعــرف رحــمــانـي وأُدركُ عــفــوهُ وأنهـضَ مــعــتــزا ومــا أنا بالمنْسي
وانَّ حــبـال الوجـدِ تربط مــهـجـتي وقلـبي بحب الـله يعــبـق كــالورسِ
وإن كنت فـي ســعـدٍ فــذلـك فــضلهُ وإن لم أكنْ من سـادة العُرب والفُـرْسِ

* * *

فــقل للذي يُزجـي الشــراع دع الكريَ تجـد سُفن الاحـسـانِ تجري علي اليـبسِ
وســرْ مــوقـنا أن الاجــابة للهــوي إذا مــادعــا الداعي ولاتكُ في حــدْسِ
فـكلُّ الـذي تـرآه والكـون خـلقــــهُ ومــا نفع التــفــريـقُ بالنوْع والجـنسِ

* * *

حـسبتُ الهـوي سهـلاً فخُـضتُ عبـابَه فطـوراً به أطـفــو، وطوراً بـه غَطْـسي
إلـي أن أتــتـنْـي مـنْ لـدُنـه عـنـايـةٌ وصلـتُ بهــا بَرَّ الســلامــةِ والأنسِ

* * *

فطرة النفس..

والكل أنت بمعني لاخفاء به

والنور بحجبه كالماء فى اللّبن

والعبدُ محتجبٌ فى عزِّ مالكه

دقت معارفه فى الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ، وأحد الذين تركوا أثرًا كبيرًا بعد وفاتهم، فى مريديهم، وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم سنى عمره. والإمام العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى، ولد فى مرسية ببلاد الأندلس، تلك المدينة التى نسب إليها فسمى "المرسى" فى سنة ٦١٦ هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الي الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه أبى الحسن الشاذلي سنة ٦٤٢ هـ ، الا أن نجمه سرعان ما سطع فى سمائها، حتي أصبح كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادىء السلوك القديم، وسبل الوصول الى رضاء الله، وفلسفته فى الزهد ،التصوف، متخذا من جامع العطارين مركزا لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله، يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحا جليًا فيما خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترابط رائع في لوحة شعرية جميلة مفعمة بالحلاوة والرقة والعذوبة.

إن كنت سائلنا عن خالصِ المنن ... وعن تآلف ذاتِ النفسِ بالبدنِ
وعن تشبثها بالحظِّ مذ ألفت ... أدرانها فغدَت تشكو من العَطنِ
وعن بواعثها بالطبع مائلةً ... تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجنِ
وعن حقيقتها فى أصل معدنها ... لا ينثنى وصفُها منها إلى وثن
وعن تنزلها فى حكمها ولها ... علمٌ يفرقها فى القُبح والحسَنِ

* * *

فاسمعْ هُديتَ علومًا عز سالكها ... على البيان ولا يغررك ذو لَسنِ
قصدًا الى الحقِّ لا تخفى شواهدُها ... قامت حقائقها بالأصل والفننِ
يا سائلى عن علوم ليس يدركها ... ذو فكرةٍ بمفهوم لا ولا فطنِ
لكن بنور عليٍّ جامعٍ خمدَت ... له العقولُ وكلُّ الخلقِ فى وَسَنِ
خُذها اليك بحق لستَ جاهلهُ ... والأمر مُطلعٌ والحقُ قيدنى

* * *

على الحقيقة خُذْ علم الأمور ولا ... تحجبك صورتها فى عَالم الوطن
فطرة النفسِ سرٌّ لا يُحيط به ... عقل تقيد بالأوهامِ والدرنِ
لكنها برزت بالحكمِ قائمةً ... حتى تألفها السكانُ بالسَّكنِ
وكيْ يقال عبيدٌ قائمون بما ... ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن

* * *

والنفس بين نزول فى عوالمها ... كآدمٍ وله حواءٌ فى قرَنِ
والروح بين ترقٍّ فى معارجها ... وهى الموافق للتعريف والمننِ
من الحجاب دنت أنوارها فبدتْ ... نوراً تنزل بين الماء والدَّمنِ
مثالها فى العُلا مرآة معدنها ... ألطافها خفية كالسِّر فى العلنِ

* * *

زيتـونة زيتـهـا نورٌ لصـاحـبـهـا قـامتْ حـقـائقـهـا بالأصلِ والقُنَنِ

ونار دعـوتـهـا مـاءٌ لشـاربهـا مُـدَّت هـدايتـهـا فى الكـونِ والكُبَنِ

والكـل أنت بمـعنى لاخـفـاء به والنور يحـجـبـه كـالماءِ فى اللَّبَنِ

والعـبدُ مـحـتـجبٌ فى عـزِّ مـالكه دقت مـعـارفـه فى الدهرِ والزمنِ

* * *

بحار الهوى..

يـا من بـه علـقـت روحى فـــقـــد تـلفـت

وجـــدا فـــصـــرت رهيـنا تحـت أهوائـى

أبكـى علـى شـــجنى من فـــرقـــتى وطـنى

طوعـــا ويســـعـــدنـى بالـنوح أعـــدائى

« الحلاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفي آخر بلغت شهرته الآفاق في الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج ، صاحب المأساة المشهورة في تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس في تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذى كان يعمل بصناعة الحلج، وآخرون يقولون: إنه سمى كذلك لأنه كان يكاشف الناس بما في قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد يبشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفزعة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام في بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقى دعواه للهدايا شعرا فيسحر الألباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقتادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتطاولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به ويرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعوهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر باعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، ، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ ، ونصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به فى خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذق، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محفورا فى قلوب أحبائه، مستقرا فى صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقى الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر فى مواضع مختلفة، وفى أحداث مختلفة من حياته، وسنبدأ بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب فى الحب الالهى والتصوف:

لى حبيب أزور فى الخلوات ... حاضر غائب عن اللحظات

ما ترانى أصغى اليه بسرى ... كى أعى ما يقول من كلمات

كلمات من غير شكل ولا نقْط ... ولا مثل تغمة الأصوات

فكأنى مُخاطبٌ كنتَ إيّاه ... علي خاطرى، بذاتى لذاتى

حاضرٌ غائب قريبٌ بعيدٌ ... وهو لم تحْوِه رسُم الصفات

هو أدنى من الضمير الى الوهم ... وأخفى من لائح الخطرات

* * *

ومن أعجب الأشياء ظبىٌ مبرقعٌ ... يشير بعنابٍ ويومى بأجفانِ

ومرعاهُ ما بين الترائبِ والحشا ... ويا عجبًا من روضة وسط نيرانِ

لقد صار قلبى قابلاً كل صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهت ركائبهُ فالحبُ ديني وإيماني
لنا اسوةٌ في بشر هند وأختها وقيس ليلى ثم سي وغيلانِ

* * *

يا سر سر يدق حتى يخفى على وهّم كل حي
وظاهراً باطنًا تجلى لكل شيء بكل شي
ان اعتذاري اليك جهل وعظم شك وفرط عي
يا جملة لكل لست غيري فمما اعتذاري اذًا الىّ
أدنوا فيبدعني خوفي فيقلقني شوقُ مُمكّن في مكنون أحشائي
فكيف أصنع في حب فيقتلني شوقُ مُمكنٌ قد ملّ من سقمي أطبائي
قالوا تداو به منه فقلت لهم يا قوم هل يتداوى الداءُ بالدائي
قحبي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو الى مولاي مولائي

* * *

وقال الحلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:

اقتلوني يا ثُقاتي ان من قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي
أنا عند مَحْو ذاتي من أجل المكرمات
وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات
فاقتلوني واحرقوني بعظامي الفانيات

ثم مـــــــــروا بـرفـــــــــاتى فـى القـــــبـــــور الـدارســـــات
تجـــــدوا ســـــر حـــــبـــــيـــــبى فـى طوايـا الـبـــــاقـــــيـــــات

* * *

والله مـــا طـلعت شـمسٌ ولا غـــربت الا وحـــبّـك مـــقـــرونٌ بأنفـــاسى
ولا جلستُ الـى قـــوم أحـــــدّثهم الا وأنت حـــــديثى بـين جـــــلاسى
ولا ذكـرتُـك مـحـــزونًا ولافـرحـًا وإلا أنـت بقـلـبـى بينَ وســـــواسـى
ولا هممـت بشـرب الماء مـن عطش الا رأيت خـــيـــالاً مـنك فى الـكاس
ولو قـدرْت على الاتيـانِ جئـتكمـو سـعيًـا على الوجه أو مـشيـا على الراس
ويـا فـــتى الحـقَّ أن غنيتَ لـى طربًـا فـغن وارْحـمتَـا من قـلبك القـاسى
مـالى وللناس كـم يلحْـوننا سـفـهـا دينـى لنفـــسى ودين الناسِ للـناسِ

* * *

لبـيك لـبـيـك يا سـرئى ونجـوائى لبـيك لبـيـك يا قـصـدى ومـعـنائى
أدعـــوك بل أنـت تدعـــونى إليك فـــهـل ناديـت أم ناجـــيـت إبائـى
يا عـين عين وجـــودى يا مـــدى هـمى يا مـنطقى وعـبـــاراتى وإعـــيـــائى
يا كل كـلى ويا سـمـعى ويـا بصـرى يا جـملـتى وتبـاعـيـضى وأجـزائى
يا مـن به علقت روحى فـقـد تلـفت وجـدًا فـصـرتُ رهينًا تحتَ أهوائى
أبكى علـى شـجنى مـن فـرقـتى وطنى طوعًـا ويسـعـدنى بالنـوحِ أعـدائى

* * *

مـا زلـتُ أطفـو فـى بحـار الـهـوى يـرفـــــعـــنى المـوجُ وأنـحـطُ

فتارةً يرفعنى موجهًا وتارةً أهوى وأنغطُ
حتى إذا صيرنى فى الهوى إلى مكانٍ ما لهُ شطُ
ناديتُ يا من لم أبُحْ بسرهِ ولم أخنه فى الهوى قطُ
تقيك نفسى السوء من حاكم ما كان هذا بيننا شرطُ

* * *

تباركت مشيئتك يا قصدى ومرادى يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حديثى وايمائى ورمزى يا جميعى وعنصرى وأجزائى

* * *

تجاسرت فكاشفتك لما غلب الصبرُ
وما أحسن فى مثلك أن يُنتهك الستر
وان عنَّفنى الناسُ ففى وجهك لى عذرُ
كأن البدرَ محتاجٌ الى وجهك يا بدرُ

* * *

وحُرمة الود الذى لم يكن يطمع فى افساده الدهرُ
ما نالنى عند هجوم البلا بأسٌ ولا مسَّنى الضرُ
ما قُدَلى عضوٌ ولا مفصلٌ ما قُدَلى عضوٌ ولا مفصلٌ

* * *

نديمى غير منسوب إلى شىء من الحيْف
دعانى ثم حيانى فِعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكأسُ دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح مع النشرين فى الصيفِ

* * *

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففرق بيننا
أنا عين الله فى الأشياء فهل ظاهر فى الكون إلا عيننا
سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا لخلقه ظاهراً فى صورة الآكل الشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجبِ

* * *

يا موضع الناظر من ناظرى ويا مكان السرِّ من خاطرى
يا جملة الكل التى كلها أحب من بعض ومن سائرى

* * *

الحب ما دام مكتوماً على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيب الحب ما تمَ الحديث به كالنار لم تؤتْ نفعاً وهى فى الحجر.

* * *

كيف السبيل؟!..

فنحن كـــدودِ القـــزِ يحـــصـــرنا الذى
صنعنا بدفع الحـــصـــرِ ســـجنًا لنا منا
فكم واقفٍ أردى وكم ســـــــائرٍ هدى
وكم حكمـــــــةٍ أبدى وكم مملقٍ أغن

« الششترى »

كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ على بن عبد الله النميرى الملقب بالششترى نسبة الى مسقط رأسه قرية "ششتر" بوادى "آش" بالأندلس ولعل السر وراء هذه العبارة التى كان يشار بها الى الششترى (٦١٠ - ٦٦٨هـ) هو نشأته فى أسرة عظيمة الثراء والجاه والنفوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششترى الذى حفظ القرآن فى صغره ثم درس الفقه، حياته تاجرا يجوب البلاد شرقا وغربا وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبى مدين» الصوفى المشهور، ولزم مجلس محيى الدين بن سراقة تلميذ «السهروردى» ، وأخذ عنه التصوف.

ولكن أكثر ما أثر فى الششترى وأحدث تحولا جذريا فى حياته ، وجعله يتحول الى التصوف بكل جوارحه وحواسه، ويصبح واحدا من أهم أئمة التصوف فى المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار فى عصر المعروف بـ «ابن سبعين».

ويصف الششترى معلمه ابن سبعين الذي التقي به بعد أن أصبح وزيراً وعالماً فى بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«اكسير الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين فى محيط الششترى أحدث انقلابا فى حياته الروحية. فقد طبق ابن سبعين القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر ، وهو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الششترى بلادا كثيرة حتي وصل مصر واعتكف زمنا بالجامع الأزهر، وتعرف الى الشاذلية، وبلغ اعجابه بها، وإعجاب أصحابها به، الى حد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد اتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششترى الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششترى فى غاية العذوبة وتواشيحه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحة، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية المتعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ ... وقد غلب الشعاعُ على النهارِ
سلافًا قد صفتْ قِدمًا وراقت ... أدِرْها بالصغار وبالكبارِ
فما عُصرتْ وما جُعلتْ بدَنٍّ ... وما سُبكتْ زجاجتها بنارِ

* * *

ويروى أن الششترى قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، ونعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِى المُتيَّم فى الهوى بجنونه ... خلُّوه يفنى عمره بفُنونه
لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ... ليس السلُّو عن الهوى من دينه
قسمًا بمن ذُكرَ العقيق لأجله ... قسمَ المُحبِّ بحبه ويمينه
مالى سواكم غير أنى تائبٌ ... عن فاترات الحب أو تلوينه
مالى اذا هتف الحمام بأيكةٍ ... أبدًا أحنُّ لشجوه وشجونه

* * *

وإلى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلاً:

شـــــــويخ مـــن أرض مـكـنـاس فـى وسـط الأســـــــــواق يُـغَـنِّـى
ايـــش عـــلـــىَّ مـــن الـــنـــاس وايـــش عـــلـــى الـــنـــاس مِـنـــى

ويعتبر الششترى أول من استخدم الزجل فى التصوف. ولقد بلغت شهرة الششترى فى الأزجال الصوفية الى الدرجة التى جعلت ابن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال» و،قد اعتمدت «الششترية» كطريقة أقرب الى التصوف السنى على اعتمادها علي السماع والموشحات التى كان يؤلفها الششترى.

أرى طالبًـا منَّا الزيـادة لا الحُـسـنى بفكر رمـى سـهـمًـا فـعـدَّى به عُـدنا
وطَـالبُـنـا مطـلـوبُنـا مـن وجـــودنـا نغـــيب به عـنَّا لدى الـصـــعق إذ عَـنَّا
تركنا حـظوظًا من حـضـيض لُحـوظنا من المقصد الأقصى الى المطلب الأسنى
وليم نلـف كُنْـه الكـون الا تـوهمًـــا وليس بـشيء ثـابت هـكذا ألْـفـــينـا
فـرفـض الســوى فـــرضٌ علينـا لأننا بملة مـــحـــو الشـرك والشـك قـد دنَّا
ولكـنه كـيـف الســبـيل لـرفـضـــه ورافـضـــه المـرفـوض نحن ومـــا كُنَّا

* * *

فـيـا قـائـلاً بالوصل والوقـفـــة التى حـجب بهـا أسـمعْ وأرعـوى مـثلمـا بنا
تقـــيـــدتَ بـالأوهام لمـا تداخـلت عليـك ونور العـقـل أورثك الســجنا
وهمتَ بأنوار فـــهـــمنا أصـــولهـــا ومَنْبـعـهـا من أين كـان فـمـا هـمنَا
وقـد تتـحـجُبُ الأنوار لـلعـبـد مـثلمـا تُقَّـيـد من اظلام نفسٌ حَـوَت ضَـغْنا
وأى وصـــالٍ فى القـــضـــيـــة يُـدعَّى وأكـــمل مَـنْ فى النـاس لم يدعِ الأَمْـنا

* * *

ولـو كـــان ســـرُّ الله يـدرك هكـذا لقـال لـنا الجـمـهـور ها نحن مـا خـبنا
فـكم دونـه مـن فـــتـنة وبـلـيَّـــة وكم مـهـمـة من قـبل ذلك قـد جُبنا
فـلا تلتفتْ فـى السـيـر غـيـراً وكل مـا سـوى الله غـيـر فـاتخـذ ذكـره حِـصْنا

وكل مـــقـــــامٍ لا تقم فـــيـــــه انَّه حـجابٌ فـجد السير واستنجد العـونا

* * *

ومـــهـــمـــا ترى كـل المراتب تجـــتلى عليك فـــحُلْ عنهـــا فـعن مـــثلهـــا حُلْنا

وقل ليـس لى فى غـيـــر ذاتك مـطلبٌ فـــلا صـــورةٌ تُـجلى ولا طُرفـــة تُـجنى

وسِـــرْ نحـــو أعـــلام اليـــمين فـــأنهـــا ســـبـــيل بهـــا يمن فـــلا تـتـرك الـيـــمنا

أمـــامك هولٌ فـــاســـتـــمع لوصـــيـــتى عِـــقـــالٌ من العـــقل الذى منـه قـد تـبنا

* * *

أبـاد الورى بـالمشـكلات وقـــــبـلهـم بأوهـامِـــــه قـــد أهـلك الجـنَّ والبـنا

مـــحـجـــتنا قطعُ الحـجـا وهو حِـجَّنا وحـــــجُّنُا تـتلـوه بـاء بهـــــا تُـهْنا

يـبطِّئنا عـند الـصـــــعـــــود لأنَّـه يود لـو أنا للصـــعـــيـد قـــد أخلدنا

* * *

تـــلـــوح لـنـــا الأطـــوارُ مـــنـه ثـــلاثـــةً كـــــراءٍ ومـــــرئـىٍّ ورؤيةِ مـــــا قلـنا

ويُبْـــصـــرُ عـــبـــداً عند طور بقـــائه ويرجعُ مـــــولى بـالفنا وهـو لا يفـنى

فنحـن كـدود الـقـزِّ يحـصـــرنا الذى صنعـنا بدفع الحـصـــر ســحنا لنـا منا

فكـم واقفٍ أرْدَى وكـم ســـائـرٍ هَدَّى وكم حكـمـةٍ أبدى وكم مُـملـقٍ أغنى

* * *

شكوى وجواب شكوى..

لقـــد ذهب الوفـــاء فـــلا وفـــاء

وكـــيف ينـال عـــهـــدى الظالمينا

اذا الإيمـان ضـــاع فـــلا أمـــان

ولا دينـا لمن لـم يحـــــيى دينـه

« محمد اقبال »

عندما مات الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال، الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا، فقد الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل -طيلة حياته- يحاول أن ينشىء الناس نشأة أخرى، ويسن لهم فى الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذى قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب، صوت الانسانية المعذبة فى كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها، الحامل لهمومها، المتاصر لقاضاياها ، والحصن الذى يقيها الهجمات التترية، التى تحاول هدم القيم،واقتلاع المبادىء,من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عنايـــــة ربهم يتـــــوكلون
لا خـــوفَ يفـــزعـــهم ولا هم فى الحـــوادث يحـــزنون
لو مـــر أضـــعـــفـــهم على فـــرعـــون يجـــتـــز الرؤوســـا
لأراك فى الافـــصـــاح ها رونـاً وفـى الإيمان مـــوسى

* * *

أنى رأيتُ الخـــوف فى الـــ ـدنيـــا عـــدوًا للعـــملْ
هو مـطفىءٌ نـور الرجـــا ءِ وســـالبٌ كـنز الأمـلْ
يـرمـى الارادة بالتـــزلـــ ـزل والعـــزيمة بالخـــورْ
ومن احـــتـــواهُ الخـــوفُ لا يجني من الروضِ الثَمـــرْ

* * *

المؤمن الوثاب تعظـــ ـصمه من الهول السكينةْ
والخائف الهياب يغرق وهو فى ظل السفـــينةْ
تلقـــاه عند شـــبابه هرمًـــا قـــد انحطت هواهُ
وتعثـــرت قـــدمـــها قـــبل الخطو وارتعـــشت يداهُ
فى السلم قـــبل الحـــرب مســـ ـلوب الشـــجـــاعـــة حـــائرٌ

الصـــــبـــــر عنه نافـــــز والـــلـــب مـــنـــه طـــائـــرٌ

* * *

أعـــداؤكم يخـــشـــون ســـيـــ ـــف يقـــينكم قـــبل الســـيـــوفْ
ومـــرامـــهم أن تســـرعـــوا بالخـــوف من قـــبل الحـــتـــوفُ
حـــــتى تـــروا نظـــراتِهم مـــثل الخناجـــرِ فى الصـــدورْ
وهـناك يقـــتـطـفـــونكم مـن أرضـكـم قـطـف الـزهـورْ

* * *

الحـــقـــد والكذب الصـــرا ح وكـــل مـــكـــرٍ أو دهـــاءْ
والـيـــــأس والجبن المذ ل وكـل غـشٍ والتـــــواءْ
تـلـك الـرذائل فـى شـــعـــو ب الأرضِ أبـــواب الـــفـــنـــاءْ
لولا المخـــاوف مـــا ســـمـــعـ ـــنا باســـمِـهـا تحت الســـمـاءْ

* * *

الشـــرك يصنع من خـــيـــوط الخـــوف أشـــراك البـــلاءْ
لـولاه لـم نســـــمع بـكـف ـــرٍ أو نـفـــــاقٍ أو ريـاءْ
المـؤمـنـون لـهـم مـن المـولـى أمـــــان الأوليـــــاءْ
بلغـوا الكمـالَ فـهم عن الـ ـــدنيـا العـريضـةِ أغنيـاءْ

* * *

ثقـــةُ الكريم بنفـــسِـه تـعـلـوا بـه فـــــوق الزمـنْ
والحـــــزن سمٌ قـــــاتل لا تشـــربوا سمَ الحـــزنْ
الموت والحـريـة الشـمـا ء والشـــــرف المسكـينْ
هى خـيـرُ مـا نحـيـا به وهـى الغـنـى لـلـمـــؤمـنين
أمـــا المـفـــضضُ والمذهـ ـــبُ والمفـوف والنضـيـدْ

فلقد تركناها لعباد الحطام وللعبيدْ

* * *

كان الدكتور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسرة «برهمية » الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى درس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارنولد»، ثم سافر الى كمبردج بانجلترا ، ثم «ميونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظهرا بعقلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كافح اقبال طويلا ضد الاستعمار فى كل مكان، ورفض أن يطلب الاستقلال للهند فقط وتحويل الدعوة الانسانية الى مجرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخته حتى بلغت مشارق الأرض ومغاربها بتحطيم أغلال الاستعمار الانجليزى، ليبقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كان اقبال رغم انفتاحه على الغرب من خلال دراسته ورحلاته، واحتكاكه بثقافات أخرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقته الخاصة، التى تفرد بها -فى رأينا- دون سائر من نزعوا الى حياة الصوفية والزهد.

تعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحانيا فى طليعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الآلهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى ورباني ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليلنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنبع فهو ابدا يتجه الى العلا شاعر صوفى رفيع المستوى، بلغ فى هذا المجال منتهي المنتهى ما جاء فى كتابه «ولله المشرق والمغرب» الذى قسمه أربعة أبواب، وأورد فى الباب الثالث شعراً صوفيا ممزوجا بفلسفة الحياه، واختار له عنوان «الخمر الباقية» مستخدما «الخمر» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذ الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، فى دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتبية ورموز الذاتية» وباقى منظوماته التى ضمنها مناح كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض النقد للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء فى كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالاتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية فى شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماته عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب فى الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للاسلام، واظهارهم محاسن الدين المحمدى.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذى جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد فى كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الاسلامى» للعالمين الجليلين «محمد حسن الأعظمى»، و«الصاوى على شعلان، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الاسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة فى الهند أجل الخدمات الى الاسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدى، لا بالسيف ولا الحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليونا من جملة المسلمين فى الهند، وهم سبعون مليونا (فى عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التى تجلت فى الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انسانا أولا، ثم علموه كيف يكون مسلما بعد ذلك.

س: هل أفادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف تبنى مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، ،من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نمو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهنادك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي ليأنس به الهنادك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابراز واظهار مزاياهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفطنون الى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتخذونها لهوا ولعبا، فهى عبارة من الأسواق والملاهى والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة فى هذا العصر المتيمز بالحركة والجد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهم حلقات رحية، وأتباع عديدون، وهم يستطيعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة فى كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيرا ما كانوا مصدرا للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: فى الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الامام أحمد البدوى مريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جيشا يجمع بين الايمان والعمل، واتجه بهم الى معسكرات الأسرى التى تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وببقية مريديه فى الموقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد الى صومعته معلما وعابدا، وننقل الى عصرنا القريب فنذكر الامام السنوسى الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الافريقى نحو عشرين عاما، حتى اذا مات خلفه الامام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفى الأمير عبدالكريم الخطابى، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال ، لا تزال ترن فى أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك فى كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد فى كرامات الأولياء، فإن النفوس التى وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال فى تزكية النفس، وعلى تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى الينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور ، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها، كما تطلب من الله عز وجل، فانى اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكر الموت، ،الدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب، وأري فوق ذلك أن فى زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا؟

ج : الانسان يحتاج الى مرشد الذي يوجهه الى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقى يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س: لم نجد فى الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين؟

ج : مرد هذا الى أن مجتمعنا الحاضر قد تعري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلىء بهم أوربا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا الا القليل النادر ، وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية ويفسح الجمال أمام ذوى الخبرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شؤن أممهم بالتشجيع والتقدير ، بينما لا يجد الموهوبون هنا غير اطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلا بوذا الذى ولد فى بيت ملك، وشاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفاهية والنعمة، أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسانية، هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للاصلاح، والمثل الأعلي في حياة العرب أنهم كانوا أبدا في حروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلي عشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدسون أشخاصا ويفتخرون بالشراب والمجون، ولايعرفون للعدل والفضل قانونا، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتز بها مسلمو العالم أجمع، ويبذلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر عن نزعته إلي التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها اولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهي المنتهي.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار اقبال، وهما قصيدتان شهيرتان احداهما بعنوان «شكوي» والأخري «جواب شكوى». وفي القصيدة الأولي يصور اشجانه والآمه ويتضرع اقبال إلي الله يسأله عمن سبب ما آل اليه المسلمون من ضعف وفرقة وتآخر بعدما بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل اقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جوابا لهذه الشكوي:

«شكوى»:

شكواي أم نجواي في هذا الدجي ... ونجومُ ليلي حسدي أم عودي

أمسيتُ في الماضي أعيشُ كأنما ... قطعَ الزمانُ طريق أمسي عن غدي

والطير صادحةٌ علي أفنانها ... تبكي الربي بأنينها المتجددِ

قد طالَ تسهيدي وطالَ نشيدُها ... ومدامعي كالطلِ في الغصنِ الندي

فالي متي صمتي كأني زهرةٌ ... خرساء لم ترزقْ براعةَ منشدِ

* * *

قيثارتي ملئت بأناتِ الجوي ... لابد للمكبوت من فيضانِ

صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي ... ليبينَ عنها منطقي ولساني

أن ماتعديت القناعةَ والرضا ... لكنما هي قصة الأشجانِ

أشكو وفي فمي التراب وانما ... أشكو مصاب الدينِ للديانِ

يشكو لك اللهم قلبٌ لم يعشْ ... الا لحمد علاكَ في الأكوانِ

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا ... روضا وأزهارا بغير شميمِ
والورد في الأكمام مجهول الشذي ... لايرتجي وردٌ بغير نسيمِ
بل كانت الأيام قبل وجودنا ... ليلاً لظالمِها وللمظلومِ
لما أطل محمدٌ زكّتْ الربي ... واخضر في البستان كل هشمِ
وأذاعت الفرد وس مكنون الذي ... فإذا الوري في نضرةٍ ونعيمِ

* * *

مَنْ قام يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحدَ القهارا
عبدوا تماثيل الصخورِ وقدسوا ... من دونك الأحجارَ والأشجارا
عبدوا الكواكبَ والنجومَ جهالةً ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا ... وهدي الشعوب إليك والأنظارا
كنا نقدم للسيوفِ صدورَنَا ... لم نخش يوما غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الـ ... ـرومان مدرسة وكان الملكُ في ساسانِ
لم تغن عنهم قوةٌ أو ثروة ... في المالِ أو في العالم والعرفانِ
وبكل أرضٍ سامري ماكرٌ ... يكفي اليهودَ موؤنةُ الشيطانِ
والحكمة الأولي جرت وثنيةً ... في الصينِ أو في الهندِ أو توران
نحن الذين بنورِ وحيكَ أوضحوا ... نهجَ الهدي ومعالمَ الايمانِ

* * *

مَنْ ذا الذي رفع السيوفَ ليرفعَ اسمـ ... ـكَ فوق هامات النجوم منارا
كنا جبالا في الجبال وربما ... سرنا علي موج البحار بحارا
بمعابد الأفرنج كان أذانُنا ... قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس أفريقيا ولاصحراؤها ... سجداتِنا والأرض تقذف نارا

وكـــأن ظلَ الســـيفِ ظلَ حـــديقـــةٍ خـــضـــراء تنبت حـــولنا الأزهارا

* * *

لم تحش طاغـــوتا يحـــاربنا ولـو نـصب المنايا حـــولنا أســـوارا
ندعـــو جـهـــارا لا اله ســوي الذي صنع الوجـــودَ وقـــدر الأقـــدارا
ورؤوسنا يـارب فـــوق أكـــفِنَا نرجـــو ثـوابك مـــغنمًـــا وجـــوارا
كـنـــا نـــري الأصـــنـــام مـــن ذهـــبٍ فنهـدمـهـا ونهـدم فـوقَـهـا الكـفـارا
لو كـــان غـــيـــر المسلمين لحـــازَها كـنـزًا وصـــــاغ الحـلـي والدينـارا

* * *

كم زلزل الصـخـر الأشم فـمـا وهي مـن بـأسـنـا عـــــــزم ولا ايمـانُ
لو أن أســـاد العـــرين تفـــزعت لم يـلقْ غـــيـــر ثبـــاتنا الميـــدانُ
وكـــأن نـيـــرانَ المدافعِ فـي صـــدور ر المؤمـنين الروح والـريـحـــــانُ
توحـــيـدك الأعلي جـعلنا نقـشـه نوراً تـضئ بصـبـحـه الأزمـــانُ
فـغـدت صـدور المؤمنين مـصـاحـفًـا في الـكون مـــسطوراً بهـــا الـقـــرآنُ

* * *

مَنْ غـــيـــرنا هـدم التـــمـــاثيل الـتي كـانت تقـدسـهـا جـهـالات الوري؟
حـــتي هوت صـــور المعـابد ســجـدا لجـــلال مـن خلق الـوجـــود صـــورا
ومَنْ الأهلي حـملوا بعـزم أكـفـهم باب المدينة يوم غـــزوة خـيـبـــرا؟
أمن رمـي نارَ المجـــوسِ فـــأطـفـــئت وأبـانَ وجَـــه الحـقِ أبلج نيـــرا؟
ومن الذي بـذلَ الحـيـاةَ رخـيـصـةً ورأي رضـاك أعـز شيء فـاشـتـري؟

* * *

نحن الذين استيقظت بأذانهم ... دنيا الخليقة من تهاويل الكري
نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم ... والحرب تسقي الأرض جاما أحمرا
جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا ... في مسمع الروح الأمين فكبرا
محمود مثل أياز[1] قام كلاهما ... لك بالخشوع مصلياً مستغفرا
العبد والمولي علي قدم التقي ... سجداً لوجهك خاشعين علي الثري

* * *

بلغتْ نهايةَ كل أرض خيلُنَا ... وكأن أبحرها رمال البيدِ
في محفل الأكوان كان هلالُنا ... بالنصر أوضحَ من هلالِ العيدِ
في كل موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تعلن آيةَ التوحيدِ
أم البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في أسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيال حرياتها ... من بعد أصفادٍ وذلِ قيودِ

* * *

رحماك رب هل بغير جباهنا ... عرف السجودَ ببيتُك المعمورِ؟
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفًا ... يحوي جلالَ كتابَك المسطورِ
إنْ لم يكن هذا وفاء صادقاً ... فالخلق في الدنيا بغير شعورِ
ملأ الشعوب جناتها وعصاتها ... من ملحد عاتٍ ومن مغرورِ
فاذا السحاب جري سقاهم غيثةً ... واختصنا بصواعقِ التدميرِ

* * *

قد هبت الأصنامُ من بعد البلي ... واستيقظت من قبل نفخِ الصورِ

---

(١) السلطان محمود الغزنوي واياز خادمه.

والكعبة العليا تواري أهلُهَا ... فكأنهم موتي لغير نشورِ
وقوافلُ الصحراء ضل حداتُها ... وغَدتْ منازلُها ظلالَ قبورِ
أنا ماحسدت الكافرينَ وقد غدوا ... في أنعمٍ ومواكبٍ وقصورِ
بل محنتي ألا أري في أمتي ... عملاً تقدمُه صداق الحورِ

* * *

لك في البريةِ حكمةٌ ومشيئةٌ ... أعيتْ مذاهبها أولي الألباب
إنْ شئت أجريت الصحاري أنهراً ... أو شئت فالأنهارُ موجِ سرابِ
ماذا دهي الاسلامُ في أبنائه ... حتي أنطووا في محنةٍ وعذابِ
فثراؤُهم فقرُ ودولةُ مجدِهم ... في الأرضِ نهبُ ثعالبٍ وذئابِ
عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا ... عن ذنبِه في الدهرِ يومَ عقابِ

* * *

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم ... للموتِ بين الذلِ والأملاقِ
الدينُ يحيا في سعادة أهله ... والكأسُ لاتبقي بغير الساقي
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ ... ـأنوارَ بين محافل العشاقِ
سكبوا الليالي في أنينِ دموعهم ... وتوضأوا بمدامعَ الأشواقِ
والشمس كانت من ضياء وجوهِهم ... تهدي الصباحَ طلائعُ الأشواقِ

* * *

كيف انطوت أيامهم وهم الألي ... نشروا الهدي وعلوا مكان الفرقدِ
هجروا الديارَ فأين أزمع ركبهم ... من يهتدي للقومِ أو من يقتدي
ياقلبُ حسبك لن تلم بطيفهم ... الا علي مصباحِ وجهِ محمدِ

فـــازوا من الـدنيـــا بمجـــدٍ خـــالدٍ ولهـم خلـودُ الفـــوزِ يـومَ الموعـــدِ
يارب ألـهـــمنا الرشـــادَ فـــمـــا لـنا في الكـونِ غـيـرك من ولـيٍ مـرشـدِ

* * *

مـــازال قـــيس والغـرام كـعـــهـده وربوع لـيلي فـي ربيعِ جـــمـــالـهـا
وهضـــاب نجـدٍ في مـــراعـيـــها المهـا وظبـاؤها الخـفـرات ملءُ جبـالِهـا
والعـــشـق فـيـــاضٌ وأمـة أحـــمـد يتـحـفـز التـاريخُ لا سـتـقـبـالِهـا
لو حـــاولت فـــوق الســـمـــاء مكـانة رفت علي شـمس الضحي بهـلالِها
مـــابالـهـــا تلقي الجـــدود عـــوائرا وتصـــــدها الأيامُ عـن آمـــالِهـــا

* * *

هجـر الحـبـيب رمي الأحـبـة بالنوي وأصـــابـهم بتـــصـــرمِ الآمـــالِ
لم يـبقْ في الأرواح غـيـــر بـقـيـــة رُحـــمـــاكَ يامـرآةَ كلِ جـــمـــالِ
لو قـــد مللنا العـشقَ كـــان سَـبـيـلُنا أن نســـتـكينَ إلـي هوي وضـــلالِ
أو نصـنع الأصنامَ ثـم نبـيـعَـهَـا حـــاشـــا الموحـــد أن يُذَلَّ لمالِ
أيام سليـــمـــان بنـا مـــوصـــولةٌ وتـــقـــي أدريـس فـــي أذانِ بـــلالِ

* * *

يا طـيب عـــهـدٍ كنت فـيـــه منارنا فـــبـــعـــثت نورَ الحقِ مـن فـــارانِ
وأســرت فـيـــه العـاشـقين بـلمـحـة وسـقـيـتـهـم راحـا بغـيـــر دنانِ
أحـــرقت فـيـــه قلوبَهم بـتـوقـد الإ يمـان لابتـلـهـبِ النـيـــــــرانِ
لم نـبقْ نـحن ولا القـلوب كـــأنهـــا لم تـتـحـظْ من نارِ الهـــوي بدخـــانِ
ان لم يـنر وجـــه الحـــبـيب بوصـلِه فـــمكان حـــزنِ الـقلـبِ كلَ مـكانِ

* * *

يافـــرحَـــة الأيـام حين نـري بهـــا ... روضَ التـــجـلي وارفَ الأغـــصـــانِ
ويعـــود محـفـلنا بحـسـنك مـسـفـراً ... كـالـصـبحِ فـي اشـراقـــه الفـيـنانِ
قـــد هـاج حـــزني أن أري أعـــداءَنا ... بـين الـطـلا والـظـل والألحـــــانِ
ونعـــالـج الأنفـــاسَ نحـن ونصطـلي ... في الفـقـرِ حين القـوم في بسـتـانِ
أشـــرقْ بنورِكَ وأبعث البـرق القـديـ ... ـــم بومـضـــة لفـــراشك الظمـــآنِ

* * *

أشـــواقنا نـحـو الحـجـــاز تطلـعتْ ... كـحنين مـغـتـربٍ إلي الأوطانِ
إن الطيـورَ وإنْ قـصَـصتَ جناحَـهـا ... تســمـــو بفـطرتهـــا إلي الـطيـــرانِ
قـيـثـارتي مكبـوتةٌ ونـشـيـدُهَا ... قـد ملَ من صـمـتٍ ومن كـتـمـانِ
واللـحنُ في الأوتارِ يـرجـو عـــازفًـــا ... ليـــبـــوحَ من أسـرارِه بمـعـــانِ
والطـورُ يرتقبُ الـتـجلي صـارخًـــا ... بهـوي المشـوقِ ولهـفـةِ الحـيـرانِ
أكـبـادُنـا احـتـرقت بـأناتِ الجـوي ... ودمـــاؤنـا نهـــر الـدمـــوعِ القـــاني
والعطرُ فـاض مـن الخـمـائـلِ والربي ... وكـــأنه شكوي بغـيـــرِ لسـانِ
أو ليـس من هول القـيـامـة أن يـكو ... ن الزهـر نمامًـــا علي البـســتـــان
النـمل لايـخـــشي سليـــمـــانا إذا ... حـــرست قـــراه عـنايةُ الـرحـــمن
أرشـد براهمـة الهنود ليـرفـعـوا الإ ... ســـلام فـــوق هيـــاكـل الأوثانِ

* * *

مـا بال أغـصـان الصنوبـر قـد نأت ... عنـمـــا قـمـــاريهـــا بكل مكانِ
وتعـرت الأشـــجـار من حللِ الربي ... وطـيـــورُها فـــرت إلي الوديـانِ
يـارب الا بـلبـــــلاً لـم ينـتـظرْ ... وحَي الـربيع ولاصـبـا نيـســانِ
ألحـــانه بحـــر جـري مـتـلاطمًـــا ... فكأنه الحـــاكي عـن الطوفـــانِ

ياليت قـــومي يســـمـــعـــون شكـايةً هي في ضـمـيـري صـرخُـة الوجـدانِ

* * *

ان الجـــواهـر حـــيـــرت مـــرآة هـــ ـــذا القـلـبِ فـهـو علي شـفـا بركـانِ
أســمـعـهـمـوا يارب مـا ألـهـمـتني وأعـــــدْ الـيـــــهمْ يـقـظةَ الإيمـانِ
وأذقـــهم الخـمـــرَ القـــديمة إنهـــا عينُ الـيـــقـين وكـــوثُر الرضـــوانِ
أنا أعـــجـمـي الدن لكـن خـمـــرتي صنع الحـجـاز وكـرمـهـا الـفـينانِ
ان كـــــان لي نـغـم الهـنود ولحـنهـم لكـن هذا الـصـــوت من عـــدنـانِ

* * *

«جواب شكوي»:

كـــــلامُ الـروح للأرواح يســـــري وتـدركـــــــه الـقـلـوبُ بـلا عـنـاءِ
هـتـــــــفـت بـه فـطـارَ بـلا جـنـاحِ وشقَ أنـيُـنـه صـــــدرَ الفـــضـــاءِ
ومـــــعـــــدنـه ترابي ولـكـنْ جـــرت في لـفظه لـغـــةَ الســـمـــاءِ
لقـــد فـاضـت دمـوع الـعـشقِ مني حـــــديـثًـــا كـــان علـوي النداءِ
فـــحلق في ربي الأفـــلاكِ حـــتي أهـاجَ الـعـــــالـمَ الأعلي بـكـائـى

* * *

تحـــاورت النجُـــوم وقلن صـــوت بقـرب العـرشِ مـوصـولَ الدعـاءِ
وجـــاوبت المجـــرة علي طـيـــفًـــا ســـري بـين الكواكـبِ في خـــفـــاءِ
وقـــال الـبـــدرُ هـذا قلـبٌ شـــاكٍ يـواصل شـــــدوه عـنـد المســـــاءِ
ولم يعـرفْ سـوي رضـوان صـوتي ومـــا أحـــراه عندي بالـوفـــاءِ
ألـم أكُ قـــبـل في جنـاتِ عـــدنٍ فـأخـــرجني إلـي حين قـضـــائي

* * *

وقِـــيلَ هو ابنُ ادمَ في غـــرورٍ تجـــاوز قـــدرُه دون ارعـــواءِ
لقـــد ســـجـــدتْ مـــلائكةُ كـــرام لـهـــذا الخلق من طينٍ ومـــاءِ
يظن العلمُ في كـــيفٍ وكمٍ وســـرُ العـــجـــزِ عنه في انطواءِ
وملء كـــؤوســـه دمعٌ وشكوي وفي أنغـــامِـــه صـــوتُ الرجـــاء
فـــيـــا هذا لقـــد أبلغت شـــيـــئًـــا وان أكـــثـــرت فـــيـــه من المراءِ

* * *

عطـايانا ســـحـــائب مـــرســـلات ولكـن مـــاوجـــدنـا الســـائـلينَا
وكـــل طـــريـــقـــنـــا نـــورٌ ونـــورٌ ولكن مـــا رأينا الســـالكينَا
ولـم نجـــدْ الجـــواهرَ قـــابلات ضـــيـــاء الوحي والنور المبـــينَا
وكـــان تراب آدم غـــيـــر هـذا وان يـكَ أصلـه مـــاء وطينَـا
ولو صـدقـوا ومـا فـي الأرض نهـر لأجـرينا الســماء لـهم عـيـونَا

* * *

وأخـــضـــعنا لملكهم الثـــريا وشـــيـــدنا النجـومَ لهم حـصـونا
ولكـن ألحـــدوا فـي خـــيـــر دينٍ بـني فـي الشـــمسِ ملك الأولـينَا
تراثُ مـــحـــمـــدٍ قـــد أهملوه فـعـاشـوا فـي الخـلائق مـهـملـينَا
تولـي هادمـــو الأصنام قـــدمـــا فـــعـــاد لـهـا أولـئك يصنعـــونا
أبـاهـم كـــــان إبـراهـيـم لـكـنْ أري أمـــثـــال آزرَ فـي البـنـينَا

* * *

وفي أســـلافكم كـــانت مـــزايا بـكل فـمٍ لذكـــراهـا نشـــيـــدُ
تضـوع شـقـائق الـصـحـراء عطراً بـرياهـا وتـبـتـســم الـورودُ...

فـــهل بقـــيت مـــحـــاسـنهم لديـكم ... فـــيـــجـــعـلُ في دلالِكُـم الصـــدودُ
لقـــد هـامـــوا بـخـــالقـــهم فـناء ... فـلم يـكتـب لغـــيـــرهـم الخـلـودُ
وكـــوثر أحـــمـــد منـكم قـــريبُ ... ولكـن شـــوقَكم عنُه بعـــيـــدُ

* * *

وكم لاحَ الـصـبـــاحُ سناً وبـشـــري ... وأذنت الـقـــمـــاري والـطيـــورُ
وكـــبـــرَتْ الخـــمـــائل في رباها ... مـصليـة فـجـاوبهـا الغـديرُ
ونوم صـــبـــاحكم أبداً ثـقـــيلُ ... كـــأنَ الـصـــبحَ لـم يدركَـــه نورُ
وأضـحي الـصـوم في رمـضـان قـيـداً ... فـليس لـكم بـه عـــزم صـــبـــورُ
تمدن عـــصُـــركم جـــمع المـزايا ... وليس بغـــائبٍ الا الضـــمـــيـــر

* * *

لقـــد ذهب الـوفُـــاء فـــلا وفـــاءَ ... وكـــيف ينالُ عـــهـــدي الظـالمينَا
إذا الايمـانُ ضـــاعَ فـــلا أمـــانَ ... ولا دنيـــا لـمن لم يـحـــيي دينَـا
ومن رضـي الحـيـــاةَ بغـيـــر دينٍ ... فـقـــد جـعلَ الـفناءَ لهـا قـرينَا
وفي الـتـوحـيـــد لـلهـــمِ اتحـــادٌ ... ولن تـبنوا الـعـــلا مـتـــفـــرقـــينَا
تسـانـدت الكواكبُ فـاسـتـقـرتْ ... ولـولا الجـــاذبيـــة مـــا بقينَ

* * *

غـــــدوتم فـي الـديـارِ بـلا ديـارَ ... وأنتـم كـــالطيـــورِ بلا وكـــورِ
وكل صـــواعق الـدنيـــا سـهـــام ... لبـــيـــد ركم وأنـتم في غـــرور
أهذا الـفـــقـــر في عـلمٍ ومـــالٍ ... وأنتـم في الـقطيـــعـــة والنـفـــورِ
وبيـع مـــقـــابر الأجـــدادِ أضـــحي ... لدي الأحـــفـــادِ مـدعـــاة الظهـــورِ

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا إذا سمعوا بتجار القبورِ

* * *

مَنْ المتقدمون إلي المعالي علي نهج الهداية والصوابِ
ومَنْ جبهاتُهم أنوارُ بيتي وفي أخلاقِهمْ يُتْلَي كتابِي
أما كانوا جدودُكُمُ الأوالي بناةَ المجدِ والفنِ العجابِ
وليسَ لكم من الماضي تراثٌ سوي شكوي اللغوب والاكتئابِ
ومن يكُ يومه في العيش يأسًا فما غده سوي يومِ العذابِ

* * *

أتشكو أن تري الأقوامَ فازوا بمجدٍ لايراه النائمونَا
مشوا بهدي أوائلكُمْ وجدوا وضيعتم تراثَ الأولينَا
أُيحرَمُ عاملٌ ورد المعالي ويسعدُ بالرقي الخاملونَا
أَليسَ من العدالةِ أنَ أرضِي يكون حصادُها للزارعينَا
تجلي النورُ فوق الطورِ باق فهل بقي الكليمُ بطورِ سينا؟

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبي يوحدكم علي نهج الوئامِ
ومصحفكم وقبلتكم جميعًا منار للأخوة والسلامِ
وفوق الكل رحمنُ رحيمُ الهٌ واحدٌ ربُ الأنامِ
فما لنهار الفتكم تولي وأمسيتم حياري في الظلامَ
وحسن اللؤلؤُ المنكونُ رهنُ بصوغِ العقدِ في حسنِ النِظامَ

* * *

وكـــيف تغـــيـــرتْ بـكُم الليـــالي وكـــيف تـفـــرقتْ بكـمُ الأمـــانِي
تركـــتم دينَ أحـــمـــد ثـم عُـــدتمْ ضـــحـــايا للـهـــوي أو لـلهـــوانِ
رقي الـشـعـب قـد أضـحي لديكم تقـــرره صـــلاحـــيـــةُ الزمـــان
وكـــيف تـقـــاسُ أوهامٌ ولـغـــوٌ بحكمِـــة منزِل الســـبع المثـــانيَ
أري نـارًا قـــد انـقلـبت رمـــادًا ســـوي ظـلِ مـــريـضٍ من دخـــانِ

* * *

أري الفـــقـــراء عـــبـــادًا تقـــاة قـيـــامـــا في المســـاجـدِ راكـعـــينَا
هـم الأبـرار في صـــــومٍ وفـطـرٍ وبالأســـحـارِهم يـســتـغـفـرونَا
وليس لـكم سـوي الفـقـراءِ ستـرٌ يواري عـن عـيـوبكم العـيـونَا
أضـلـت أغـنـيـــــاءكـم الملاهـي فـــهم في ريبِـــهم يتـــرددونَـا
وأهلُ الـفـــقـــرِ مـــازالوا كـنوزًا لـدِيـن الـلـهِ رب الـعـــــالمين

* * *

أري التـــفكَـيـــر أدركُـه خـمـــولٌ ولم تبقْ العـــزائـمُ في اشـتـعـــالِ
وأصـبح وعظُكم من غـيـر سـحـرٍ ولانـورٍ يُـطِـلُ مـن المـقـــــالِ
وعـند الـناسِ فـلسـفـــــةٌ وفكـر ولـكـن أين تـلـقين (الغـــــزالـي)
وجـلـــجـلـة الآذان بـكـلِ أرضٍ ولـكـن أين صـــــوت من بـلالِ
مـنـائـركـم عـلـت فـي كـل حـي ومـسـجـدكم من العـبـاد خـالي

* * *

فـــأيـن أئمـــة وجنود صـــدقٍ تهـاب شـبـاةَ عـزمِـهم الحـرابُ
إذا صنعـــوا فـصنعـهم المعـالي وإن قـالوا فـقـولهم الـصـوابُ

مـــــــرادهـم الاله فـــــــلا ريـاءَ ونهـــجـــهـم اليـقـين فـلا ارتيـــابُ
لأمـــتـــهم ولـلأوطان عـــاشـــوا فـلـيس لـم إلـي الـدنيـــــا طـلاب
كـــمـــثل الكـأس تبـصـــرها دهاقـــا وليـس لأجلِهـــا صُنِعَ الشـــرابُ

* * *

جـــهـــاد المؤمنين لـهم حـــيـــاةٌ ألا أن الحـــيـــاةَ هـي الجـــهـــادُ
عـــقـــائدهـم ســواعـــد نـاطقـــات وبالأعـــمـــالِ يثـبت الاعـــتـــقـــادُ
وخـــوفُ الموتِ للأحـــيـــاء قـــبـــرٌ وخـــــوف الـله لـلأحـــــرارِ زادُ
أري مـــيـــراثَـهم أضـــحي لديكُم مـضـاعًـا حـيث قـد ضـاعَ الرشـادُ
ولـيس لـوارثٍ في الخـــيـــر حـظٌ إذا لـم يحـــفَـظ الأرثَ اتحـــادُ

* * *

لأي مـــاثر الـقـــوم انتـســـبـــتم؟ لتـكتـســـبـــوا فـخـــار المسلمـيـنَا
فـــأين مـــقـــامُ ذي النورينِ منكم ودولـة عـــــزة دنيـــــا ودينَا
وفـــــقـــــرُ علي الأواب هـلا ربحـــتُم فـيـــه كنزَ الـفـاتحـيـنَا
أقـــمـــتم في الذنـوبِ وفي الخطـايا وتغـــتـــابون حـــتي الصـــالحـيـنَا
وهم ســتـروا عـيـوب الخلق فـضـلا وان كـــــانـوا أبر المتـــقـــيـنَا

* * *

أريكة قـيـصـر وسـرير كـسـري قـد احـتـمـيـا بملكهم العـمـيمِ
وأنتـم تطمـــحـــون إلـي الثـــريا فـــــلا عـــــزم ولا قـلب سليمِ
تضـيـعـون الأخـاءَ وهم أقـامـوا صـــروحَ أخـائهم فـوقَ النجـومِ
طلبـــتم زهرةَ الـدنيـــا وعـــا بلا زهـر يضـــوع ولا شـــمـــيمِ

وكـان لديهم الـبـستـان مـحـضًـا وهم أصـحـابُ جناتِ الـنعـيمِ

* * *

يعـيـد الكـون قـصـتـهم حـديثًـا وينشئ مـن حـديثـهِم الفـنونـا
فكـم نزحـوا عـن الأفكارِ شـوقًـا إلي الـتـحليقِ فـوقَ العـالمينا
وبأس شـبـابكم أدمي خطاهم فـظنوا فـيـه بالـدين الظـنونَـا
هي المـدينـةُ الحـمـقـاء ألقت بـهم حـولَ المذاهبِ حـائرينَـا
لـقـد صنعت لهم صنم الملاهي لتـحـجبَ عنهم الحـرَم الأمـينَـا

* * *

لقـد سئمَ الهـوي في البيـدِ قـيسٌ ومـل مـن الشكـايـةِ والـعـذابِ
يحـاول أن يبـاحَ العـشـقُ حـتي يري لـيـلاه وهـي بلاحـجـابِ
يريـد سـفَـور وجـه الحـسنِ لما رأي وجـهَ وجـهَ الغـرامِ بلا نـقـابِ
فـهـذا العـهـدُ أحـرقَ كل غـرسٍ مـن المـاضـي وأغـلـقَ كـلَ بـابِ
لقـد أفنت صـواعـقـه المغـاني وعـاثت في الجـبال وفي الـهـضـابِ

* * *

هـي النـارُ الجـديدة لـيس يـلقي لهـا حطبٌ سـوي المجـد القـديمِ
خـذوا ايمـان إبـراهـيم تـنبـت لكـم في النـارِ روضـات الـنعـيمِ
ويذكـو من دم الـشـهـداء وردٌ سـني الـعطـر قـد سي الـنسـيمِ
ويـلمـعُ في سـمـاءِ الكونِ لـونٌ من العناب مـخـضـوب الأديمِ
فـلا تفـزع إذا المرجـانُ أضـحي عـقـودًا لـلبـراعـم والكـرومِ

* * *

فـكـم زالـتْ ربـاضُ مـن ربـاهـا وكم بـادتْ نخـيل في البـوادي

ولكن نخلةَ الإسلامِ تنمو ... على مرِ العواصفِ والعوادي
ومجدك في حمى الإسلام باقٍ ... بقاء الشمسِ والسبعِ الشدادِ
وأنك يوسفٌ في أي مصر ... يري كنعانه كلَ البلادِ
تسير بك القوافلُ مسرعاتٍ ... بلا جرسٍ ولا ترجيع حادي

* * *

ضياؤُك مشرق في كل أرضٍ ... لأنك غير محدود المكانِ
بغت أمم التتار فأدركتها ... من الايمانِ عاقبة الأمانِ
وأصبح عابد والأصنامِ قدما ... حماةَ الحجر والركن اليمانِ
فلا تجزع فهذا العصر ليل ... وأنت النجم يشرق كل آنِ
ولاتخش العواصفَ فيه وانهضْ ... بشعلتك المضيئةِ في الزمانِ

* * *

أعد من مشرق التوحيد نوراً ... يتمُ به اتحادُ العالمينا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي ... فكيف تعيشُ محتبساً دفينا
وأنت نسيمُه فاحملْ شذاه ... ولاتحمل غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمانِ شمساً ... وضع من ذروة جبلاً حصينا
وكُنْ في قمةِ الطوفان موجاً ... ومزنا يحطرُ الغيثَ الهتونا

* * *

فباسم محمد شمس البرايا ... أُقيمتْ خيمة الفلك المنيرِ
تلألأ في الرياض وفي الصحاري ... وفوق الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونبضُ الكونِ منه مستمدٌ ... حرارتُه علي مرِ العصورِ
ومن مراكش يغزو صداه ... ربوع الصين بالصوت الجهيرِ
وما مشكاة هذا النور الا ... ضمير المسلم الحر الغيورِ

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع ... لقدرك نحو غايات الكمالِ
فكن إنسان عين الكون وأشهدْ ... مقامك عالياً فوق المعالي
بخنجر عزمك الوثاب لاحتْ ... علي الأعلامِ أنوار الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجاب ... إذا دوي بصوت من بلالِ
وعقلك في الخطوب أجلَ درعٍ ... وعِشْقُكَ خير سيفٍ للنضالِ

* * *

خلافةَ هذه الأرض استقرتْ ... بمجدك وهو للدنيا سماءُ
وفي تكبيرك القدسي يبدو ... صغيراً كل ماضمَ الفضاءُ
فيا من هب للإسلامِ يدعو ... وأيقظَ صدقِ غيرته الوفاءُ
سترفع قدرَك الأقدارُ حتي ... تشاهَد أن ساعدَكَ القضاءُ
وقيل لك احتكم دنيا وأخري ... وشَأنُكَ والخلود كما تشاءُ

* * *

كل المنى..

أنرتَ الهدى للمهتدين ولم يكنْ

من النورِ فى أيديهم عشر معشارى

فنلنِى بعفوٍ منكَ أحيى بقربِه

وغَشَ بيسرٍ منك فقرى واعسارى

« ذا النون المصرى »

من بين أشهر رجال الصوفية فى الإسلام أبو الفائض ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وان ذا النون كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل ان ذا النون اعتاد أن يطوف بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها، وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر، ويقال إن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الي التضلع فى التنسك وكبح جماح النفس.

من بين ما روى عن ذى النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته فى قارب بالنيل فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعيدين احنقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم على هؤلاء القوم السعداء فى هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة فى الحياة الأخرى»، الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا فى توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصحبه «ان المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئا من أحد سواه. أنا أعبده وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمعن فى كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠ -٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت فى أول اسفارى علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت فى ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفار« حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدا طريدا. لقد حصلت العلم فى المرة الأولى والتوبة وهى مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفى المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة، وفى المرة الثالثة وصلت الى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها لم يتفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهدا من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه فى أواخر أيامه وأرسل به الى بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الى مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون فى أول الأمر متنسكا متقشفا، زهد العالم فى الوحدة والعزلة حيث تدرب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر الى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفيا عارفا بالله، وهو يكاد أن يكون صوفيا تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التى تجتازها الروح فى سبيلها الى الوصول الي الله والعثور عليه.

ولذى النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة ايمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليكَ صبابتى ... ولا رويتُ من صدقِ حبِك أوطارى
منـاى المنى كلُ المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند أقصارى

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغايةُ رغبتى ... ومضعُ شكواى ومكنونُ إضمارى
تحملَ قلبى فيك مالا أبُثُه ... وإن طالَ سُقمى فيكَ أو طالَ إضرارى

* * *

وبين ضلوعي منكَ ما لولاك قد بدا ولم يبدْ باديه لأهلي ولا جاري

وبي منك في الأحشاءِ داءٌ مخامرٌ فقد هدمني الركن وأثبت أسراري

* * *

ألستَ دليلَ الركبِ إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هاري

أنرتْ الهدى للمهتدين ولم يكنْ من النورِ في أيديهمِ عشر معشاري

* * *

فنلني بعفوٍ منك أحيى بقربه وغّشَ بيسرٍ منك فقري« وإعساري

* * *

مالى سواك..

مـــــالى ســـــواك أغـــــثنى

وهـل ســـــواك نـصـــــيـــــر

ولـى إلـيـك شـــــــفـــــــيـع

بـدر المســـــــاء المـنـيـــــــر

« أحمد الحلوانى »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل الحلوانى الشافعى أحد الذين يمثلون السمو الروحى فى الأدب الصوفى. وقد ولد الحلوانى فى احدى قرى محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ القرآن صغيرًا. ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين واللغة. وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى والشبراوى.

وقد ترك الحلواني تراثًا شعريًا صوفيًا رائعًا ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، وبعد مماته فى سنة ١٣٠٨ هـ.

وسنقدم هنا لأحمد الحلوانى ابتهالاً صوفيا شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالى سواك».

استغفر الله ربّى ... فالله رب غفورٌ
مما جناه جنَاني ... أو اللسان العَثُور
أو الجوارحُ منىٍّ ... فإنها قد تثورُ
أو ظاهرٌ ليس يَخفى ... أو باطنٌ مستورُ

* * *

أستغفر الله مما ... قد قلتُه وهو زورٌ
ومن تَناس بناسٍ ... عمَّن هو المذكورُ
ومن خلافٍ أمورٍ ... أنا بها مأمورٌ
أستغرف الله مماً ... جرَى به المقدورُ
من كل أمر معيب ... قد كنتُ فيه أمورُ

* * *

لم يُرض ربِّى وقلبى ... بكسْبه مسرورُ

إن سـرتُ يومـاً إليـه أطيـر حين أسـيرُ
وعنـد أولِ جـزء منـهُ يجيء الأخـيرُ
وإن توخـيتُ خـيـراً صـرفـاً فكم أستـخيرُ
وإن تهـممتُ يومـًا إليـه جـاء الفُتـورُ

* * *

وللتـقـدم أنوى فـيـعـرضُ التـأخـيرُ
هبْنى تقـدَمتُ، مـاذا يُجـدى وقلبي نفـورُ
وهبْـه غـيـرَ نفـورِ هل فـيـه ثمَّ حـضـورُ
عـدمـتـهُ من فـؤادٍ عند الصـلاةِ يطـيـرُ

* * *

أنوى فـيـذهبُ لبِّى وفى السـلام يحـورُ
أظلُّ أحـسـبُ فـيـهـا ومـا تحـتـويه الدُّهورُ
كـأنّنى بحـسـابى مُـؤكـلٌ أو أجـيـرُ
فلو ترانى فـيـهـا لقلْتَ: ذا مـبـهـورُ
فـفى العـبـادة طرْفى ولو بصـيـراً ضـريرُ
وفى الذنوبِ فـؤادى على عَـمـاهُ بصـيـرُ

* * *

يـا ويـلْـنـا من ذنـوبٍ فُـجـورُها مـفـجـورٌ
ومـن خُـطـايَ الـلـواتـى إلى الخطى تسـتـطـيـرُ
وآه مـن كُـلِّ إثـمٍ عليـه يُطوى الضـمـيـرُ
ومن مـقـاصـد سـوءٍ جـرى به التـعـبـيـر

* * *

شـيءٌ ومـنْ، لـسـتُ أدرى؟ فـذاك شيءٌ كـثـيـرُ

قبائحٌ كنتُ فيها أَسْرى وطور أسيرُ
ماتت وعاشت، فقلبى من أجلها مفطورُ
سُررتُ منها زماناً وغمُّها مذخورُ
نسيتها ودعاها كتابى المسطورُ

* * *

ماذا أقول لربيٍّ إذا بدا التحريرُ
يارب أنت رحيمٌ وبالسَّماح جديرُ
يا ربّ أنت عفوٌ وأنت ربّ قديرُ
يارب إنى حقيرٌ جدّاً وأنت الكبيرُ

* * *

وشأنُ من جَلَّ يغضى إذا أساءَ الحقيرُ
وأين تُربٌ خسيسٌ من ربِّه يا مُجيرُ
وما أريد احتجاجاً عليْكَ بل أستجيرُ
أجرْ عبيدَكَ يا منْ سواه ليس يُجيرُ

* * *

مالى سواكَ أغثنى وهل سواكَ نصيرُ
ولى إليك شفيعٌ بدرُ السماءِ المنيرُ
غوْث الأنام المرجىَّ إذا المساء تمورُ
به توسَّلتُ فاجبر كَسْرى ، فإنى كسيرُ
واسكُب عليه التحايا ما فاض منه النورُ

* * *

مجاهدة النفس..

وذلـك لأن النـاسَ قـــــد آثـرُوا الهـــــوى

علـى الحقِ ســـراً ثم جـــهـــراً عـــلانيَـــا

فـــهـــذا زمـــانُ الشـــرِ فـــاحـــذرْ ســـبـــيلَه

فـــإن ســـبـــيل الشـــرِ يروى المـهـــاويا

« الأنطاكي »

هذا الصوفي الكبير أبو عبدالله أحمد بن أحمد بن عاصم الأنطاكي المتوفى سنة ٢٣٩ هـ يطلق عليه اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كلامه دوما على المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس . والأنطاكي يرى أن الصوفية هم "أهل الصدق" . ومجالستهم لذلك تكون بـ "الصدق" . وعلم التصوف -كما يراه- هو "علم معاملات القلوب" .

ويقول الأنطاكي: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس مسئولة فتعهدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعواها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون فى مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه حياته، ومجاهداته الروحية ، وحقيقة تصوفه.

ولعل هذه القصيدة الرائعة والتى يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على ذلك.

ألم ترى أن النفس يرديك شرُها ... وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا

فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمةً ... وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا

هلمَّ إليّ الآن إن كنت طالبًا ... سبيل هدى أو كنت للحق باغيا

فعندى من الأبناء علمٌ مجربٌ ... فنه بالهام ومنه سماعيا

* * *

أخبرُ أخبازاً تَفَادَمَ عهدُها ... وكيف بدا الإسلام إذ كان باديًا

وكيف نما حتى استتم كماله ... وكيف ذوى اذ صار كالثوب باليا

ومن بعدِ ذا عندى من العلم جوهرٌ ... يفيدُك علمًا إن وعيت كلاميا

وعملا غزيراً جالى الرين والصدى ... عن القلب حتى يترك القلب صافيا

* * *

فأصبحتُ بالتوفيق للحق واضحًا ... وذاك بالهامِ من الله ماضيا

لأنى فى دهر تغرب وصفه ... فصار غريبا موحش الأهل قاسيا

فأحيوج ما كنا إلى وصف ديننا ... ووصف دلالات العقول زمانيا

عجائب من خير وشر كليهما ... فان كنت سماعا بدا للقلب واعيا

فقد ندب الأسلام أحمد ندبةً ... كما ندب الأموات ذو الشجو شاجيا

* * *

فأول ما أبدأ بالحمد للذي ... يراني للاسلام اذ كان باريا

وصيرنى إذا شاء من نسل آدم ... ولم أكُ شيطانا من الجن عاتيا

ولا شاء من إبليس صير مخرجى ... فكنت مضلاً جاحدَ الحقِ باغيا

ولكنه كان باللطفِ سابقا ... وإذا لم أكن حيًا على الأرض ماشيا

* * *

وصيرنى من بعد فى دين أحمدٌ ... وعلمنى ما غاب عنه سؤاليا

وفهمنى نوراً وحكمة ... فشكرى له فى الشاكرين موازيا

فمن أجلِ ذا أرجو إذ كان غافراً ... ومن أجل ذا قد صح منى رجائيا

ومن أجل ذا أرجـــوه إذ لـم يكـافنـى ولكـن بلطـف منـه كـــان ابتـــدائيـــا

* * *

فـــلا كنت ذا عـــقل لما قـــد رجـــوته لقـد كنتُ ذا خـوف وشـكرى مـحـاذيا

ولو كنـت أرجـوه لحـسن ضـيـعـه شكـرت فـصـح الآن منى حـيـائيـا

فـشكرى لـه إذا صيـرت بـالحق عـالما وللشـر وصـافـا وللخـيـر واصـيـا

ومن بعـد ذا وصـفى لنفسي وطبـعـهـا ووصـفى غـيـرى إذ عـرفـت ابتـدائيـا

* * *

فـهـذا مـن الأبناء وصـف غـرائب. فـمـن كـان وصـفى لكان بـحـاليـا

فكيف به إذا كـــان بـالحق عـــالما فـهـيـهـات لا ينجـيـه إلا الفـافـيـا

وذاك لأن النـاس قـــد آثروا الـهـــوى على الحـق سـر ثم جـهـراً عـلانـيـا

فـهـذا زمـان الشـر فـاحـذر سـبـيله فـإن سـبـيل الشـرِ يردى المهـاويا

* * *

البردة..

كـــــيف ترقى رقـــــيك الأنبـــــيـــــاء

يا ســـمـــاء مـــا طـاولتـــهـــا ســـمـــاء

« البوصيرى »

البوصيرى هو امام المادحين، وأحد أئمة الصوفية المعدودين، الذين خلد ذكرهم، وخاصة بسبب افاضته، واجادته فى مدح الرسول الأعظم، وتقديمه للعالم الاسلامي همزيته الخالدة "البردة". وقد سمى الامام الجليل أبو عبدا شرف الدين محمد بن سعيد المغربى الأصل بالبوصيرى نسبة إلى "بوصير قوريدس" من قرى بنى سويف حيث نشأ هناك وأمضى جزءا من عمره إلى أن أقام بالاسكندرية آخر حياته حتى مات ودفن فى قبره الذي شيد عليه مسجده المسمى باسمه.

وقد كان البوصيرى طيلة حياته التي امتدت ما يقرب من تسعين عاما (٦٠٨ – ٦٩٦هـ) أحد المدافعين عن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليه، وخاصة ممن أنكروا نبوة الرسول من غير المسلمين، حيث ناقشهم، وجادلهم وأقام الحجة عليهم، ويظهر ذلك فى مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصوفية ومنها كتاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البوصيرى، كان من أصحاب الهمة العالية، كما تذكر أنه تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم في الاسكندرية، وانقطع الي التصوف، وما اليه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد سيدى أبى العباس المرسى وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همزية البوصيرى النورانية«البردة» التى لم تزل تمثل درة على جبين الشعر العربى قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدح الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهدا لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصيرى كان قد بدأ فى نظم القصيدة أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله يمز بيده الكريمة علي جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم «البرأة»، وقد جازاه الرسول بأن خلع عليه بردته، ولذا سميت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صيت هذه القصيدة حتي بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتي يومنا هذا في ذكر مالها من كرامات، حتي صاروا ينشدونها فى مجالسهم، واختفالاتهم الدينية تشفعا بالنبيّ ، وطلبا لتفريج كربتهم، حتي سميت «قصيدة الشدائد».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيري أن يرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالا فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت علي الاطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوي حين أصيب بخراج فى بطنه استعصى علي الأطباء شفاؤه. فأرسل من يحج عنه علي حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجها له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أيضاً ما روى عن رجل أنه كان يقرأها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجرته أثناء قراءته للبردة وتهب عليهم بين الحين والآخر.

وفيما يلى رائعة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الاسلامى حتى يومنا هذا:

أمِن تذكـــر حـــيـــرانٍ بذى سَلَمِ ... مَـزَجْتَ دَمـعًا جرى من مـقلةٍ بدمِ

أم هبت الريحُ من تـلقـاء كـاظمـة ... وأومض البـرقُ فى الظلمـاءِ من إِضَمِ

فـمـا لعـينيكَ ان قلتَ أكـفُـفَـا هَمَتَا ... ومـا لقلبكَ ان قلتَ اسـتـفِق يَـهِمِ

أيَحـسـبُ الصَّبُّ أن الحبَّ مُنكَتِمٌ ... مـا بـين منسـجم منه ومُـضـطَرِمِ

لولا الهـوى لم تُرِق دَمـعًا عـلى طللٍ ... ولا أرِقتَ لـذِكـر البـان والعَـلَمِ

فكيفَ تـنكِرُ حبـاً بعـدمـا شـهـدت ... به عـليك عُـدُولُ الدمعِ والسـقمِ

وأثبتَ الـوجـدُ خَطَّى عـبـرةٍ وضَنىً ... مـثل البـهَـارِ على خـديكَ والـعنَمِ

نعم سـرى طيفُ مـن أهوى فـأرقـنى ... والحب يـعـتـرض الـلذاتِ بـالألمِ

بالائمى فـى الهـوى العـذريِّ مـعـذرةً ... مـنى الـيك ولـو أنصَـفْتُ لَـم تَلُـمِ

عَـدَتكَ حَـالـى لاسـري بمسـتـتـرٍ ... عن الـوُشـاةِ ولا دائى بمُنحـسـمِ

مَـحَضـتَنى النُّصحَ لَكِن لستُ أسـمَعُـهُ ... إن المحبَّ عـن العُـذالِ فى صَـمَمِ

إنى اتهـمتُ نصيـحَ الشَّيبِ فِى عَـذَلِى ... والشـيبُ أبعـدُ فى نصح عن التُّـهمِ

* * *

فـإنَّ أمَـارتِى بـالسـوءِ مـا اتعـظت ... من جـهلِهـا بنـذيرِ الشـيب والهَـرَمِ

ولا أعَـدت من الفـعـلِ الجـمـيل قِـرَى ... ضـيفٍ ألَمَّ برأسى غـيـر مُـحـتـشمِ

لـو كنتُ أعلَـمُ أنى مـا أوقـرهُ ... كـتـمت سـرًا بدا لى منه بالكـتمِ

من لم يـردَّ جـمَـاح من غـوايتـهـا ... كـمـا يُردُّ جـمـاح الخـيلِ بالـلُّجَمِ

فـلا تَرُم بـالمَعَـاصِى كَـسـر شَـهـوتِهَا ... إن الطعـامَ يُـقـوى شـهـوةَ النَّـهِمِ

والنفسُ كـالطفلِ إنْ تـهـمله شبَّ عَلَى ... حُبَّ الـرضـاعِ وإن تفطِمـه ينفـطمِ

فـاصـــرف هواها وحـــاذر أن تولِّيـَه ... إن الهـــوى مـــا تولى يصم أو يـصمِ

وراعِـهَـا وهى فى الأعـمـال سـائمـةٌ ... إن هي اسـتـحلت المرعى فـــلا تُسمِ

كم حـــسَّنَت لذةً لـلمـــرءِ قـــاتـلةً ... من حـيـثُ لم يدرِ أنَّ السُّمَّ فـى الدَسَمِ

واخشَ الدسائسَ من جـوعٍ ومن شبعٍ ... فَـرُبَّ مـخـمَـصَـةٍ شَـرٌّ من التُـخمِ

واسـتـفرِغ الدَمعَ مـن عَينٍ قَد امـتـلأت ... من المحـــارِمِ والزم حـــمـــيَـةَ الـنـدمِ

وخـالف النفسِ والشيطانَ واعـصـهمـا ... وان همـــا مـحـضـــاك النصحَ فـاتَّهِمِ

ولا تطِعْ منهُـمـا خـصـمًـا ولا حكمـا ... فـأنـت تعـرف كـيـد الخـصـمِ والحكمِ

أسـتـغـفـر الله من قـولٍ بلا عـملٍ ... لقـــد نسـبت به نسـلا لذى عـــقـمِ

أمـرتُـكَ الخـيـر لكـن مـا ائتَـمـرتُ به ... ومـا استـقـمتُ فما قـولى لك استقمِ

ولا تـزودتُ قـــــبـل المـوتِ نافـلـةً ... ولم أُصَـلِّ سـوَى فـرضٍ ولَـمْ أصُمِ

* * *

ظلـمتُ سُنَّةَ من أحـيـا الظـلامَ الى ... أن اشـتـكت قـدمـاهُ الضـرَّ من وَرَمِ

وشـد مـن سـغبٍ أحـشـاءه وطوى ... تحت الحـجـارةِ كـشـحًـا مُـتـرَفَ الأدمِ

وراودتُه الجـبـــالُ الـشمُّ مـن ذهبٍ ... عن نـفـسِـه فـأراهَا أيَّمـا شَـمَـمِ

وأكـدت زهـدَهُ فـيـهـا ضـرورَته ... إن الضـرورة لا تعـد وعلـى العـصمِ

وكـيف تـدعـو إلى الدنيـا ضـرورة من ... لولاه لـم تخـرج الدنيـا من العـدمِ

مُـحَـمَّـدٌ سـيـد الكـونين والثقلـيـ ... ـن والفـريقين من عربٍ ومن عـجمِ

نبـيـنا الآمـر الـناهى فـلا أحَـدٌ ... أبَـرَّ فـى قـــولٍ لا مِـنـه ولا نَـعَـمِ

هو الحـبـيبُ الـذى تُرجَى شـفـاعـتُـه ... لكـلِّ هَولٍ من الأهـوالِ مـقـتَـحـمِ

دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبلٍ غير منفصمِ

فاق النبيين فى خَلقٍ وفى خُلُقٍ ... ولم يُدانُوهُ فى علمٍ ولا كَرَمِ

وكُلُّهُم مِن رسولِ الله مُلتمسٌ ... غَرفًا من البحرِ أو رشفاً من الدِيَمِ

وواقفونَ لديه عند حَدِّهِمُ ... من نقطةِ العلم أو من شكَلةِ الحِكَمِ

فهذا الذي تم معناهُ وصورته ... ثم أصطفاه حبيبا باري النَّسَمِ

منزهٌ عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ

دع ما ادعته النصاري فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وأنسب إلى ذاته ما شئتَ من شرفٍ ... وأنسب إلى قدره ما شئت من عِظمِ

فإن فضل رسول الله ليس له ... حَدٌّ فيُعرِبَ عنه ناطق بفمِ

لو ناسبت قدره آياته عظمًا ... أحيا اسمُهُ حين يدعى دَارِسَ الرَّمَمِ

لم يمتَحنَّا بما تَعيَا العقول به ... حرصا علينا فلم تَرتبَ ولم نهمِ

أعيا الورى فَهمُ معناه فليس يُرَى ... للقرب والبعد فيه غير منفحمِ

كالشمس تظهر للعينين من بُعدٍ ... صغيرةً وتُكلُّ الطرفَ من أممِ

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقَتَهُ ... قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحلمِ

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كُلِّهمِ

وكل آيٍ أتى الرسل الكرام بها ... فإنما إتصلت من نوره بِهِمِ

فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبها ... يُظهِرنَ أنوارها للناس فى الظلمِ

أكرم بخلقِ نبى زانه خُلُقٌ ... بالحسن مشتملٍ بالبشرِ متسمِ

كالزهرِ فى ترفٍ والبدرِ فى شرف ... والبحر فى كرمٍ والدهرِ فى هممِ

كـــأنه وهـو فـــردٌ فـى جـــلالتـــه ... فى عـــسكرٍ حين تـلقـاه وفى حـــشمِ
كـــأنما اللـؤلُؤ المكـنون فى صـــدف ... من مـــعـــدنى منطـقٍ منهُ ومـــبَـــسَمِ
لا طيـبَ يعـــدلُ تربًا ضَـمَّ أعظُمَـــهُ ... طُـوبَى لمنتـــــشقٍ مـنـه وملتـــثِمِ

* * *

أبان مـــــولـده عن طـيب عـنصـــرِه ... يا طيبَ مـبـتـدإٍ منه ومـــخـتـتمِ
يومٌ تـفـــرس فـــيـــه الفـــرس أنـهم ... قـــد أنـذروا بحلول البـــؤس والنـقمِ
وبات إيوان كـــســرى وهو منـصـدعٌ ... كـشمل أصـحـاب كسـرى غـير ملتئمِ
والنـار خـامـــدة الأنفـاس مـن أسفٍ ... عليـه والنهـر سـاهى العين مـن سـدمِ
وســاء ساوَة أن غـاضت بحـيـرتهـا ... ورُدَّ واردهـا بالـغـــــيظ حين ظمِـى
كـــــأنَّ بالـنار مـــــا بـالماء مـن بللٍ ... حـــزنـاً وبالماء مـــا بـالنار مـن ضـــرمِ
والجن تـهـــتف والأنوار ســـاطعـــة ... والحقُ يـظهـــرُ من مـــعـنى ومن كـلمِ
عَـمُـوا وصَـمُـوا فـإعـلانُ البـشـائر لم ... تســـــمع وبـارقـــةُ الأنـذار لم تُشَمِ
من بعـدِ مـا أخـبَـرَ الأقـوامَ كـاهِنُهُم ... بـأن ديـنـهـم المعـــــــوج لـم يَـقُـمِ
وبعـدمـا عـاينوا فـى الأفق من شـهـيب ... منقـضـة وفق مـا فى الأرض من صنمِ
حـتى غـدا عن طريق الـوحى منهـزمٌ ... من الشـــيـــاطين يقـفـوا إثرَ مـنهـزمِ
كـــــــأنـهـم هـربـا أبـطـال أبـرهـة ... أو عـسكر بالحـصـى من راحـتـيـه رُمِى
نبـذًا بـهِ بعـد تسـبـــيحٍ يبطنـهـمـا ... نَبـــذَ المُسَـبِح من أحيـســاءِ مُلتـقَمِ

* * *

جـاءت لـدعـوته الأشـجـار سـاجـدةً ... تمشـى اليـــه على ســـاقٍ بلا قـــدمِ

كـــأنما سطـرت سطرا لمـا كـتـــبت ... فُـــروعُـــهَـــا مـن بديع الخـط باللَّـقَمِ

مِـثلُ الـغَـمَـامَـةِ أنىَّ سَـــارَ سـائرةٌ ... تقـيـه حـرَ وطـيسٍ للهـجـيـرِ حَـمِي

أقـــســـمت بالقـــمـــر المنشـق ان له ... من قلبـــه نسـبـة مـبـرورة القـسم

ومـا حـوى الغـار مـن خـيـر ومن كـرم ... وكل طـرف من الكـفـــار عنه عَـــمِى

فـالصدق فـى الغار والصـديق لم يرِمـا ... وهم يـقـــولون مـــا بالغـــارِ من أَرِمِ

ظنوا الحـمـامَ وظنـوا العنكبـوتَ على ... خـــيـــر البـــرية لم تنسجْ ولم تَحُمِ

وقـايـة الله أغنت عن مـــضـــاعـــفـة ... مـن الدروع وعـن عـــــال من الأُطُمِ

ما ســامنى الدهر ضَـيمًـا واستجرتُ به ... الا ونـلتُ جـــــوارًا منـهُ لـم يُضَـمِ

ولا التـــمـست عـنى الدارين مـن يده ... الا استلمت النـدى من خـيـر مـستلمِ

لا تُـنـكـرِ الـرَحْـىَ مـن رؤيـاهُ إنَّ لَـهُ ... قـلبـًـا إذا نامـت العـــينانِ لـم ينَـمِ

وذاك حـين بـلـوغٍ مـن نـبـــــــؤتـه ... فليس ينكر فـيـه حـال مـحـتلمِ

تبـــارك الله مـــا وحى بمكـتـــسب ... ولانبى عـلـى غـــيـب بمُـتَّـــهَـمِ

كم أبرأت وصـبـــًا بـاللمس راحـتـه ... وأطـلـقـت أربًـا من ربـقَـــة الـلَّـمَـمِ

وأحـيـت السنَةَ الشـهـبَـاء دعـــوتُه ... حـتى حكت غـرةً فـى الأعـصُـرِ الدهمِ

بعـارضٍ جَـاد أو خِلتُ البطَـاح بهـا ... سـيـبًـا من اليَم أو سـيـلاً من العَـرِمِ

* * *

دعنـى ووصـــفى آيات لـه ظهـــرت ... ظهـــور نار القـــرى لبـــلاً على عَـلَمِ

فـــالـدر يزدادُ حـــسـنًا وهو مـنتظمٌ ... وليـس يَنقُصُ قـــدرًا غـــيـــر منتظمِ

فـــمـــا تَطَـاول آمـــالِ المديح الى ... مـا فـيـه من كـرم الأخـلاق والشـيمِ

آياتُ حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدمِ

لم تقترن بزمانٍ وهى تخبرنا ... عن المعاد وعن عدٍ وعن إرمِ

دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيينَ إذ جاءَت ولم تَدُمِ

محكماتٌ فما تبقينَ من شُبَهٍ ... لذى شقاقٍ وما تبغينَ من حكمِ

ما حُوربتَ قط الا عادَ من حرب ... أعدى الأعادي اليها ملقى السَّلَمِ

ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجاني عن الحُرَمِ

لها معانٍ كموج البحرِ فى مددٍ ... وفوق جوهره فى الحسن والقيمِ

فما تعد ولا تحصى عجائبها ... ولا تسام على الأكثار بالسَّأمِ

قُرَّت بها عين قاريها فقلت له ... لقد ظَفرتَ بحبل الله فاعتصمِ

ان تَتلُهَا خيفةً من حر نار لظى ... أطفأت حر لظى من ورودها الشَّيمِ

كأنها الحوضُ تَبيضُّ الوجوهُ به ... من العصاةِ وقد جاءُوهُ كالحُمَمِ

وكالصراط وكالميزان معدلةً ... فالقسطُ من غيرها فى الناس لم يَقُمِ

لا تعجبن لحسود راح ينكرها ... تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ ... وينكر الفمُ طعمَ الماء من سقمِ

* * *

يا خير من يَمَّمَ العافُونَ ساحتهُ ... سعيا وفوق متون الأينُقِ الرُّسُمِ

ومَن هو الآيةُ الكبرى لمعتَبرٍ ... ومن هو النعمة العظمى لمغتنمِ

سريت من حرمٍ ليلا الي حرمٍ ... كما سرى البدرُ فى داجٍ من الظلم

وبت ترقى الى أن نلتَ منزلةً ... من قابِ قوسين لم تدرك ولم ترمِ

وقـدمـتك جـمـيع الأنبـيـاء بهـا ... والرسل تقـديم مـخـدومٍ على خـدِم
وأنت تخـتـرق السـبع الـطبـاق بهم ... في مـوكبٍ كـنت فـيـه صـاحـب العَلَمِ
حـتى إذا لم تـدع شَـأوًا لمسـتـبقٍ ... مـن الدنُـوَ ولا مـرقـى لمسـتنِـمِ
خـفـضـت كل مـقـام بـالاضـافـة اذ ... نوديـت بالرفـع مـثل المفـرد العـلمِ
كـيـمـا تفـوز بـوصلٍ أيِّ مسـتـتـرٍ ... عن الـعـيـون وَسـرٍّ مكـتَـتَـمِ
فـحُـزتَ كـل فـخـارٍ غـيـر مـشـتـركٍ ... وَجُـزتَ كل مـقـامٍ غـيـر مـزدحمِ
وجل مـقـدارُ مـا وليت مـن رتب ... وعـز ادراكُ مـا أوليـت من نـعمِ
بشـرى لنا مـعـشـر الاسـلام ان لنا ... من الـعنـاية ركنـا غـيـر منهـدمِ
لما دعـا الله داعـينـا لطـاعـتـه ... بأكـرم الـرسل كـنا أكـرمَ الأمَـمِ

* * *

راعت قلـوب العـدا أنبـاء بعـثـتـه ... كنبـأة أجـفلت غـفـلاً من الغـنمِ
مـا زال يلـقـاهم فى كل مـعـتـركٍ ... حـتى حكـوا بالقَنَا لحـمـاً عـلى وضَمِ
ودوا الفـرَار فـكادوا يـغـبـطـون به ... أشـلاء شـالت مع العـقـبـان والرخمِ
تمضى الـليـالـى ولا يدرون عِـدَّتَـهَـا ... مـا لم تكـن من ليـالى الأشـهـرِ الحُـرمِ
كـأنما الدين ضـيف حل سـاحـتـهم ... بكـل قَـرمٍ الي لحـم العِـدَا قَـرِمِ
يَجُـرُ بَحَـرَ خَـمِيسٍ فـوق سـابحة ... يـرمـى بموجٍ من الأبـطـال مُـلتَطِمِ
من كـل منتـدبٍ لله مـحـتـسب ... يسطـو بمسـتـأصل للكفـر مـصـطلمِ
حـتى غـدت مِلةُ الاسـلام وهـى بهم ... من بعـد غـربتـهـا مـوصـولة الرحمِ
مكـفـولةً أبـدا منهـم بخـيـر أبٍ ... وخـيـر بـعلٍ فلـم تَيـتَـم ولم تَئِـمِ

هم الجبالُ فسَلْ عنهم مصادِمَهُمْ ... ماذا رأي منهم فى كل مصطدمِ

وسل حنينًا وسل بدرًا وسل أُحدًا ... فصول حتف لهم أدهى من الوَخَمِ

المُصدِرى البيض حُمرًا بعدما وردت ... من العدا كل مسَودٍّ من اللمَمِ

والكاتبينَ بسمرِ الخَطِّ ما تركت ... أقلامهم حرفَ جسمٍ غيرَ منعجمِ

شاكى السلاح لهم سِيمَا تميزهم ... والورد يمتاز بالسيما من السَّلَمِ

تهدى اليك رياحُ النصرِ نشرَهمُ ... فتحسب الزهرَ فى الأكمامِ كل كَمِى

كأنهم فى ظهور الخيل نبتُ رُبًا ... من شدة الحَزم لا من شدة الحُزُمِ

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقًا ... فما تفرق بين البَهمِ والبُهَمِ

ومن تكن برسول الله نصرتُه ... إنَ تَلقَهُ الأسدُ فى آجامِها تَجِمِ

ولن ترى من ولى غير منتصرٍ ... به ولا من عدو غير منقصمِ

أحل أمنه فى حرز ملتته ... كالليثِ حلَّ مع الأشبالِ فى أَجَمِ

كم جَدَّلت كلماتُ الله من جَدلٍ ... فيه وكم خَصَمَ البرهانُ من خَصِمِ

كفاك بالعِلمِ فى الأميِّ معجزةً ... فى الجاهلية والتأديبِ في اليُتُمِ

* * *

خدمتُهُ بمديح أستقيلُ به ... ذنوبَ عمرٍ مضى فى الشعرِ والخِدَمِ

اذ قلدانى ما تخشى عواقبه ... كأننى بهما هدىٌ من النعمِ

أطعت غيَّ الصبا فى الحالتين وما ... حصلت الا على الآثامِ والندمِ

فيا خسارةَ نفسٍ فى تجارتها ... لم تشتر الدين بالدنيا ولم تَسُمِ

ومن يبع آجلاً منه بعاجله ... يبن لهُ الغَبنُ فى بيعٍ وفى سَلَمِ

إنْ آتِ ذنبـًا فـما عـهـدى بمنتـقضٍ ... من النبى ولا حَـبلىِ بمُنصَـرِمِ

فـإن لى ذمَـةً منهُ بتـسـمـيـتى ... مـحـمـدًا وهـو أوفى الخلق بـالذممِ

إن لم يكـن فى مـعـادى آخـذًا بيـدى ... فـضـلاً وإلا فَـقُلْ يا زَلـةَ القـدمِ

حـاشـاهُ أن يحـرم الراجى مكارِمَـهُ ... أو يرجع الجـارُ منه غـيـر مُـحتَـرمِ

ومنـذ ألزمتُ أفكـارى مـدائحـه ... وجـدته لخـلاصـى خـيـر ملتـزمِ

ولن يـفـوت الغـنى منه يـدًا تَرِبَـتْ ... إن الحَـيـا يُنبِتُ الأزهَارَ فـى الأكَمِ

ولم أرِد زهرةَ الـدنيـا الـتى اقـتـطفت ... يـدا زهيـرٍ بمـا أثـنى عـلـى هَـرِمِ

* * *

يا أكـرمَ الخلـق مـا لى من ألـوذُ به ... سـواك عنـد حلول الحـادث الـعـممِ

ولن يـضـيق رسـول الله جـاهُـكَ بى ... اذا الـكريمُ تحـلـى باسـمِ مُـنتَـقـمِ

فـان من جُـودِكَ الدنيـا وضـرتهـا ... ومـن عـلومـك عـلـم الـلـوحِ والقـلـمِ

يـا نفس لا تـقنـطى من زلـةٍ عَظُمـتْ ... إن الكبـائرَ فى الغـفـرانِ كـالـلَّمَمِ

لعلى رحـمـةَ ربـى حين يقسـمـهـا ... تأتى على حسب العـصيـان فى القـسم

يارب واجـعـل رجـائى غـيـر منعكسٍ ... لديك واجـعل حسـابـى غـيـر منخـرمِ

والطـف بعـبـدكَ فى الدارينِ إن له ... صـبـرًا مـتـى تدعـهُ الأهوالُ يَنهَـزِمِ

وَأذَن لسـحبِ صـلاةٍ منكَ دائمـةٍ ... عـلى الـنـبـىِّ بمنـهـلٍ ومُنسَـجـمِ

مـا رَنَّحَت عـذابات البـانِ ريحُ صَبـًا ... وأطرب العيسَ حـادى العـيـسِ بالنَّغَمِ

ثم الرضـا عن أبيـبكـرٍ وعن عـمـر ... وعن علىٍّ وعن عـثـمـانَ ذى الكرَمِ

والآل والصـحـب ثم التـابعـين فـهم ... أهل التـقـى والنقـا والحلـم والكرمِ

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسعَ الكرمِ

واغفر الهى لكل المسلمين بما ... يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرمِ

بجاه من بيته فى طِيبَةٍ حَرِمٍ ... واسمُهُ قسمٌ من أعظم القسمِ

وهذه بردة المختار قد خُتِمَتْ ... والحمد لله فى بدءٍ وفى خَتَمِ

أبياتُهَا قد أَتَت سِتِّينَ مع مِائةٍ ... فرج بها كربَنَا يا واسِعَ الكَرَمِ

* * *

سلمى..

شـربنا حُـمـيّـا الكأس فى قـدس حـضـرةٍ
وأكـرم بهـا فـى حـضـرة القُـدس من خـمـرِ
لنـا عُـصِـرَتْ من كَـرمْ نـور جـمـال مَنْ
سـقـانـا وقـد غـنينا وحـرنا فـمـا ندرى
سكـرنا بهـا من شـمـهـا قـبـل شـربهـا
نـشـاوى بـريّـاها إلـى آخـر الـدهـرِ

« اليـافـعـى »

هذا شاعر صوفى آخر ، يفيض شعره رقة وعذوبة، ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده، ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته الرفيعة فى عوالم الصوفية، والحب الالهى. شاعرنا هنا هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، نسبته الى "يافع" من حمير، مولده ونشأته فى عدن بأرض اليمن.

كان اليافعى ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد فى نفسه مع الأيام ميلا الي التصوف.

وعندما وجد اليافعى فى نفسه رغبة في الاستزادة من مناهل العلم، على يد أعلام عصره، ارتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته، وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعى مؤلفات كثيرة فى التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى سبعين عاما وهى عمره كله (٦٩٨ -٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفى هذا المؤلف يشرح اليافعى بأسلوب أدبى جميل الأحوال والمقامات، كما يضمنه ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعى أيضاً «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، الذى يتناول سير خمسمائه من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم ، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم ، وكل ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعى فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة ، وشفافية الروح، ويغلب عليها الرمز.

وانظر اليه يقول فى قصيدة بعنوان «لباب اللب فى مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعانى الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العوى فى مذهب الحب والفقر ... بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ
سوى رؤية المحبوب فى ساعة القا ... اذا ما قتيل السيف عوض فى الحشرِ
فشتَّان ما بين المقامين فى العُلى ... وبين شهيد الحب والسيف فى القَدْرِ
فما طالبُ مولى له طال شوقه ... وفى حبه قد مات خالٍ عن الصبرِ
كطالب مطعوم الجنان وشربها ... وملبوسها والخيل والحور والقصرِ
كفى شرفًا موت المحب صبابةً ... بمولى، وفضلاً جلَّ قدراً عن الحصرِ
قتيل جمالٍ قد وَدُوه برؤيةٍ ... ووصلٍ وقربٍ والتنادمِ والسرِّ

وتكمن أهمية شعر اليافعى فى أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعى أشعار كثيرة تفيض رقة وعذوبة، الا اننا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصلى «الراح المختوم والدر المنظوم فى مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرِّ ... عسى خبرٌ يلقاكما، طيّب الذكرِ
يجىءُ به من نحوها عذبُ منطق ... يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخّبر عن سلمى وعن ذلك الحمى ... وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى
رعى الله عهداً مرَّمع جيرة الحمى ... هنا فى رياضٍ زاهراتٍ به زُهْرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما ... بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدرِ

* * *

أماطت حجابًا عن بهاء جمالها ... فهمنا سكارى فى المهامة والقفرِ
نرومُ التسلىِّ عن هواها ببُعْدنا ... وكلُّ جمال فى الوجود بها يغرى
خليلَّى ما سلمى ونجدٌ وما الحمى ... وما راحُها، ما كأسُها، ما الهوى العُذرى
شربنا حميَّا الكأس فى قُدس حضرة ... وأكرِم بها فى حضرة القُدْسِ من خمْرِ
لنا عُصرت من كرْم نورِ جمال من ... سقانا، وقد غبنا وحرنا فما ندرى

* * *

سكرنا بها من شمها قبلَ شرْبها ... نشاوى برّياها إلى آخر الدهرِ
أو السّكر ذا من رؤية الكأس، أو أنت ... به رؤية الساقى الينا ذوى السُّكرِ
تجلىَّ بأوصاف الجمال فشاهدت ... عيونُ قلوبٍ ما به حار ذو الفكْرِ
فيا ليلةً فيها السعاداتُ والمنى ... لقد صغُرت فى جنبها ليلة القدْرِ
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرِّضا ... أتانا أغرُّ السَّعْد بالخلعِ الخُضْرِ
رسول عنايات برسم ولاية ... وتصريفنا فى الملكِ فى البَرِّ والبحْرِ
وضاءت لنا أنوارُ غيبٍ وشوهدت ... أمورٌ وأعلمنا بها أنها تجرى
وحلّت بوادى طور قلب معارف ... زهت فيه كم حسناء فى داخل الخدرِ
وكمْ حكم تجلى ملاح، كأنها ... عرائسُ أبكارٌ على منطق الدرِّ
وكم يدفع الله البلايا بسادةٍ ... من الخلق فى كشفِ الشدائد والضُرِّ

* * *

فمنْ لم بذا يؤمنْ، فقولوا له إذا ... تجرَّأ على الغُرِّ المشايخ بالنُكْرِ
تجلّى فُضولاً فى فضائل سادة ... لهم فى سما مجدِ المفاخر كم قَصْرِ
مقاماتُ أحباب ترى الشهب دونَها ... بنُوها بياقوت المواهبِ والدرِّ
تضىء الدّياجى من بهاء جمالها ... بما يهتدى مَنْ للعلا نحوها يسرى
وما تلك من أشباهِ عُشِّك، فادُجِ ... إلى جوفِ عشٍّ فى الغيباتِ أو جُحْرِ

* * *

كأسي وخمري..

أحـــبُك حُـــبين: حب الهـــوى

وحـــبًـــا لأنك أهل لذاكـــا

فـــأمـــا الذى هو حُبُ الهـــوى

فـــشـــغلى بذكـــرِك عـــمنْ ســـواكـــا

« رابعة العدوية »

نعم هى أشهر النساء اللائى عرفن بالزهد، بل التصوف، فعزفن عن الحياة الدنيا، وتقشفن، وتنسكن، وتعبدن الله، انها ام الخير رابعة القيسية، والتى تغلب عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها فى النسك والزهد، قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟ فقالت وهو من بليغ القول : والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟.

وتعبيراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت: ان كان شيء فخوفى من أن يرد على.

وقال رجل لرابعة: انى قد اكترث من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب على أن تبت؟ قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هى واخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناى، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت تحب الناى عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت ربها قائلة: «الهى! اني غريبة ويتيمة وأرسف فى قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟» أى أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهال الي الله أن يقيلها من عثرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك!»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»، ثم تقبل على الصلاة فاذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «الهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى!».

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم »شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشعارها فى المحبة الالهية ظهرت دعوة رابعة العدوية واضحة جلية، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعة العدوية «كأسى وخمرى» -فى رأينا طبعا- وبعدها «أحبك حبين» أشهر أشعارها وبعدها بعض مقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات ايقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة رابعة

كأسى المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعة

فـــإذا نـظرت فـــلا أرى إلاَّ لـه وإذا حـضـرت فـلا أرى إلا مـعـه
يا عـــاذلـى إنى أحـبُ جـــمـــالَهُ تالله مـا أُذنى لـعـذلِكَ سـامـعـة

* * *

أحـــبك حـــبين: حـب الهـــوى وحـــبّـــا لأنـك أهلٌ لـذاكـــا
فـــأمـــا الـذى هو حـبُ الهـــوى فـشـغـلى بذكـرك عـمـن سـواكـا
وأمـــــــا الـذى أنـت أهـلٌ لـه فكـشـفـك للحُـجب حـتى أراكـا
فـــلا الحـــمـــدُ فى ذا ولا ذاك لى ولكـن لك الحـــمـد فى ذا وذاكـــا

* * *

راحـــتى يا اخـــوتى فى خـلوتى وحـبـيـبى دائمـاً فى حـضـرتى
لم أجـــدْ لى عـن هواه عـــوضّـــا وهـواه فى الـبـــرايا مـــحـــتنى
حـيـثـمـا كـنت أشـاهد حـسـنه فـهـــو مـحـرابى إليـه قـبلتى
إن متُ وجـــدّاً ومـــا ثـم رضـــا وأعنـائى فـى الورى وأشـــقـــوتى
يـا طبـــيـبَ القـلـبِ يـا كلُ المنـى جُـدْ بوصل مـنك يشـفى مـهـجـتى
يا ســـرورى وحـــيـــاتى دائمـــاً نشـــأتى مـنك وأيضـــاً نشـــوتى
قـد هجـرتُ الخلـقَ جـمـعـاً أرتجى منك وصـــلاً فـهـو أقـصى منيـتى

* * *

يا ســـرورى ومـنيـــتى وعـــمـــاد وأنيـــسى وعُـــدتى ومُـــرادى
أنت روح الـفـــؤاد، أنت رجـــائـى أنت لـى مـــؤنس وشـــوقك زادى
أنـت لولاك يـا حـــيـــاتى وأنس مـــا تشـــتـت فى فـــسـيح البـلاد

كـــم بـدت مـنَّة وكـــم لـــك عـنـدى مـن عطـاء ونـعـــــمـــــةٍ وأيـادى
حـــبك الآن بـغـيـــتى ونـعـيـــمى وجـــــلاء لـعين قـلـبى الـصـــــادى
ليـس لى عنـك مـــا حـــيـــيـتُ براح أنـت منـى مُـــــمَـكَّن فـى الســـــواد
أن تكـن راضـــيـــــاً عليَّ فـــإنى يا مـنى القـلـب قـــد باد إسـعـــادى

* * *

ته دلالا..

نصـــحـــتـك علمـــا بالـهـــوى.. والذى أرى

مـــخـــالفـــتى.. فـــاخـــتـــر لنفـــسك مـــا يـحلو

فـــإن شـــئـت أن تحـيـا سـعـيـدا فَـــمُت بهِ

شـــــهـــيـــــداً وإلا فـــــالغـــــرام لـه أهل

« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر، ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه إبن الفارض في العشق سلطان العاشقين ـ كما هو عند الصوفية ـ وفي الحب إمام المحبين، وفي الهوي قدوة المقتدين، وفي النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون علي أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت في ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلي الكفر والقول بالاتحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف في الثناء عليه، فمن يكون إبن الفارض؟

هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بإبن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وإبن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوه بها ويتغنى فيها، ولقد عاش في عصر الأيوبيين (٥٥٦ ـ ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية إبن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ إبن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمي «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا إبن الفارض آثارا مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر إبن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب إبن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر إبن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روحي. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاءً، وضمنا ... سواء سبيلي دارها وخيامِي

وملنا كذا شيئا عن الحي، حيث لا ... رقيبٌ، ولا واشٍ بزورٍ كلامِ

فرشتُ لها خدي وطاءً علي الثري ... فقال: لك البشر بلثمِ لثامِي

فما سمحتْ نفسي بذلك غيرةً ... على صونها مني لعزِ مرامِي

وبِتنا كما شاء إقتراحي على المني ... أري الملكَ ملكِي والزمانَ غلامِي

وسوف نقدم هنا ـ عزيزي القارئ ـ رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

ته دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا ... وتحكم فالحسن قد أعطاكا

ولك الأمـــرُ مـــا أنت قـــاضٍ فـعـلىَّ الجـمـالُ قـد ولاَّكـا

وتلافي ان كـان فـيـه ائتـلافي بِكَ، عـجِّل به جُـعلتُ فـداكـا

وبما شـئت في هـواكَ اخـتـبـرني فـاخـتـبـاري ما كـان فـيـه رضـاكـا

فـعـلى كـلِّ حـالةٍ أنـت منيٍّ بي أولى، وإذْ لم أكـنْ لـولاكـا

* * *

وكـفـاني عـزّاً بحـبـك ذُلّي وخـضـوعي، ولـست من أكـفـاكـا

وإذا مـا إليـك بالـوصل عـزَّتْ نسـبـتي عـزَّةً وصحَّ ولاكـا

فـاتهـامي بالحب حـسْـبي، وإني بين قـومي أُعـدُّ من قـتـلاكـا

لـك فـي لحـيٍّ هـالـكٌ بـك حـيٌّ في سـبـيل الهـوي اسـتلذَّ الهـلاكـا

عـبـد رقٍّ مـارقَ يومًـا لـعـتق لو تـخَلـيْتَ عنه مـا خـلاَّكـا

* * *

بجـمـالٍ حـجـبْـتـهُ ، بـجـلالٍ هامَ وإسـتـعـذَب العـذابَ هناكـا

وإذا مـا أمْـنُ الرجـا منه أدنـا كَ، فـعـنهُ خـوفُ الحِـجى أقـصـاكـا

فـبـإقـدام رغـبـةٍ حين يغـشـا كَ، باحـجـامِ رهبـةٍ يخـشـاكـا

ذات قـلب فـأذَنْ له يـتـمنَّـا كَ،، وفـيـه بقـيـةٌ لرجـاكـا

أومـر الـغـمْضَ أن يمـرُ بِجـفْـني فكـأني به مـطيـعًـا عـصـاكـا

* * *

فـعـسى في المنام يعـرضُ لي الـوهـ ـم، فـيـوحي سـرّاً إلي سُـراكـا

وإذا لـم تُنعش بروح التـــــمني رمـقي، واقـتـضي فنائي بقـاكـا
وحَـمـت سُنةُ الهـوي سنة الغَـمْـــ ـــض جـفُـوني، وحـرِّمت لُقْـيـاكَـا
أَبْـقِ لي مـــــقُلـةً لـعلِّـيَ يـومًـــا قـبل مـوتي أري بـهـا من رآكـا
أين مني مـارمتُ هيْـهـاتَ، بـل أيـ ـــنَ لعـيني بالجـفنِ لَثْـمُ ثراكـا

* * *

فَـبـشـيـري لو جـاء منْكَ بعطفٍ ووجـوي في قـبـضـتي، قلت هاكـا
قـد كـفي مـا أري دمـا من جُـفـونٍ بك قـرْحى، فـهـل جرى مـا كـفـاكـا
فـأجـر من قـلاكَ فـيك مُـعنيً قـبل أن يعـرفُ الـهـوى يهـواكـا
هبْـكَ أنَّ اللاَّحى نهـاهْ بِجـهلٍ عنْكَ قُـلْ لي عن وصله منْ نهـاكَـا
وإلي عِـشْـقِكَ الجـمـالُ دعـاهُ فـإلي هـجْـره تـري من دعـاكـا

* * *

أتُرى مَـنْ أفْـتـاَك بالـصـدِّ عنيِّ ولغـيـري بالودِّ مَـنْ أفـتـاكـا
بانكسـاري بـذلَّتي بـخـضـوعي بافـتـقـاري بـفـاقـتي بِغناكـا
لاتكلـني إلـى قـوى جَلَـد خـا نَ، فـاني أصـبحتُ من ضُـعـفـاكـا
كنت تجـفـو وكـان لي بعضُ صِـبْـرٍ أَحْـسَنَ اللهُ في اصـطبـاري عـزَاكَـا
كم صـدودًا عـسـاكَ ترحمُ شكوا ى، ولو باسـتـمـاع قَـولي عـسـاكـا
شنَّع المُـرجـفـون عـنك بهـجـري وأشـاعـوا أني سَلوتُ هواكـا
مـا بأحـشـائهم عـشـقْـتُ فـأسلو عنك يومًـا، دع يهـجـروا، حـاشـاكـا

كـــيف أسلو ومـــقلتي كُلمـــالا ... حَ بريقٌ تلفَّـــتَ للقِـــاكـــا

ان تنسَـــمتُ تحت ضـــوءِ لثـــامٍ ... أو تنســـمْتُ الريحَ من أنبْـــاكـــا

طِبْتُ نفـــسًـــا إذْ لاح صُـــبحُ ثنايا ... كَ لعـــيْني، وفـــاح طيبُ شـذاكـــا

* * *

كل من فـي حِـمـــاكَ يهـواكَ، لـكن ... أنا وحـدي بكلٍّ من في حـمـــاكـا

فـيك مـعنىً حَـلاكَ في عيْن عـقلي ... وبه نـاظري مُـــعنىً حِـــلاكـــا

فُـقْـتَ أهل الجـمـال حُسْنًا وحُـسْني ... فـبـهـمْ فـاقـهُ إلى مـعْناكـا

يُحـشـر العـاشـقـون تحت لوائي ... وجـمـيع الملاحِ تَحْتَ لواكـــا

مـــاثناني عنْكَ الضَّنى فـبـمـاذا ... يـا مـليح الدَّلالِ عـنى ثـنـاكـــا

* * *

لـك قـــربٌ ببـــعـــدك عنيٍّ ... وحنو وجـدتهُ في جَـفـاكـا

علم الشوق مـقلتي سهـر اللَّيْـــ ... ـلِ، فـصارتْ من غـير نومٍ تـراكـا

حـبَّـذا ليلةٌ بهـا صِـدْتُ أسـرا ... كَ، وكـان السُـهـادُ لي أشـراكـا

ناب بدر التـمـام طيْفَ مُـحـيًّـا ... كَ لطرفي، بيـقظتي إذ حكـاكـا

فـتـراءيت في سـواكَ لعينٍ ... بك فـرَّتْ ومـا رأيت سـواكـا

* * *

وكـذاك الخليلُ قلب قـبلي ... طرْفـه حين راقبَ الأفـلاكـا

فـالـد ياجي لنا بِك الآن غُـرٌّ ... حـيث أهديتَ لي هُدىً من ثناكـا

ومتى غبْتَ ظاهراً عن عِياني ... أُلفِه نحو باطني ألفاكا

أهل بْدرٍ ركبٌ سريتَ بليلٍ ... فيه بل سار في نهارِ ضياكا

واقتباسُ الأنوار من ظاهري غيْـ ... ـر عجيبٍ وباطني مأواكا

* * *

يعْبَق المسْكُ حيثما ذُكرَ اسْمي ... منذ ناديْتَني أقَبِّلُ فاكا

ويضوع العبيرُ في كلِّ نادٍ ... وهو ذكرٌ معبرٌ عن شذاكا

قال لي حسنُ كلِّ شيءٍ تجلىَّ ... بى تملي فقلتُ قصدي وراكا

لي حبيبٌ أراكَ فيه معنىً ... غُرَّ غيري وفيه مَعْنىً أراكا

ان تولىَّ على النفوس تولىَّ ... أوتجلىَّ يستعبدُ النُسَّاكا

فيه عوِّضتُ هُداى ضلالاً ... ورشادى غيًّا وسترى انهتاكا

وحدَّ القلبُ حبه فالتفاتي ... لك شِرْكٌ ولا أرى الاشراكا

يا أخا العدْلِ في من الحسْن مثْلى ... هام وجداً به عِدمْتُ أخاكا

لو رأيت الذي سباني فيه ... من جمالٍ ولن تراه سباكا

ومتى لاح لي اغترْتُ سُهادي ... ولعينيَّ قلتُ هذا بِذاكا

* * *

الألسنة والأسماع، هو الذى أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاما، يقول واحد منهم يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلب فارغ ... ممن سواك، ملأته بهواكا

ومـــلأت كلي منك، حـــتى لم أدع منى مكانا خـــاليـــاً لســـواكـــا
فـالقلـب فـيـه هيـامـه وغـرامـه والنطق لا ينفكُّ عن ذكـــراكـــا
والطرف حـيث أُجـيلـه مـتلفـتـا في كـل شئ يجـتـلى مـعناكـا
والســمع لا يـصـغى إلى مـتكلمٍ إلا إذا مـاحَـد ثوا بحـلاكـا

بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قـرب مني، ببـعـدك عني وحنوٌّ وجـدته في جـفـاكـا
علّم الشـوق مـقلتي سـهـر الليل فـصـارت من غـيـر نوم تركـا
حـبـذا ليلة بهـا صـدتُ اسراك وكـان السـهـاد لي أشـراكـا
بات بدر التـمـام طيف مـحـيّـاك لطرفـي بيـقظىً إذ حـكـاك
فـتـراءيت في سـواك لعينٍ بك قَـرَّتْ ومـا رأيت سـواكـا

وهى أبيات تدور حول فكرة استحضار صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة، وهو مجال كان لإبن الفارض فضل السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه ان غـاب عني كل حـارجـة في كـل مـعنى لطيفٍ رائقٍ بهـيج
في نغـمـة العـود والناي الرخيم، اذا تألـفَّـا بين ألحـانٍ من الـهـزج
وفي مـسارح غـزلان الخـمـائل في برد الأصـائل والاصـبـاحِ في البَلَجِ
وفي مـسـاقط أنداء الغـمـام علي بسـاط نَوْرٍ من الأزهار مُنتـسج
وفي مـسـاحب أذيال النسـيم إذا أهدى إليَّ سُحَـيـراً أطيب الأرج
وفي التـشـامىَ ثغر الكأس مرتـشفًا ريق المدامـة في مـسـتنزهٍ فـرج
لم أدْرِ مـا غـربةُ الأوطانِ وهو مـعي وخـاطري أينَ كنا غـيـر منزعجِ

* * *

ليلى..

قـــد سُـــقتُ فـى الهـــوى إلـيكَ مـــهـــجـــتي
وَالـدمُ دمعٌ لـغـــــــــرامـى شـــــــاهـدُ
ولم أقـــــصـــــرْ فـــيكَ عـن حـــفظِ الـهـــوي
والحـــــــرُ مَـنْ يحـــــــفـظْ مـن يعـــــــاهـدُ

« نجم الدين »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفى الكبير، الذى لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف فى القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن على بن الحسين الشيبانى المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (٦٠٣-٦٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا فى البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحى فى حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ على الحريرى ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا فى توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الأبيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشيرُ إليهم المتكلم ... واليهمُ يتوجَّه المتظلمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى ... وتلذُّ لوعاتِ الغرامِ المغرمُ
هذا الوجود وان تعدَّد ظاهراً ... وحياتكم ما فيه إلا أنتمُ
وشغلتمُ كلى بكم وجوارحي ... وجوانحى أبداً تحنُّ إليكمُ

* * *

واذا نظرتُ فلستُ أنظر غيركم ... واذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
واذا نطقت ففى صفات جمالكم ... واذا سألتُ الكائنات فعنكمُ
واذا سكرتُ فمن مُدامة حبكم ... وبذكركم فى سكرتى أترنَّمُ
واذا نظمتُ تغزُّلاً فى صورةٍ ... فلأجل حُسنكمُ المحجَّبِ أنظمُ

* * *

أنتم حقيقةُ كُلِّ موجودٍ بدا ... ووجود هذى الكائناتِ تَوَهُّمُ

أنا فى وجـــودكمُ غـــريبٌ بائنٌ وغـــريبكم مـــا بالهُ لا يُرحمُ

ويتميز شعر نجم الدين بصدق معانيه، وروعة مخيلته، وسمو مقاصده، وغناء مفاهيمه الصوفية. وسوف نورد هنا غزلية نجم الدين الصوفية الرقيقة «ليلى» التى يرمز فيها للجمال الالهى بليلى، ويقول مؤثرا الموت على الهجر:

هل عـهـد ليلى بالكثيف عـائدٌ أم طيفها لسُقْمِ جسمى عائدُ
حـوار حار العقلُ فى صفاتها لها الجمالُ عاشقٌ وحاسدُ
فكل عـضـوٍ بدرٌ طالعٌ وكل عطفٍ فيه غصنٌ مائدُ
فعطفها وحُسنُ صبرى ناقصٌ وحسنها وفرط وجدى زائدٌ

* * *

يا كعبةَ الحسنِ التى أحجَّها فؤادُ مُضناكَ عليكَ وافدُ
قد سُقْتُ فى الهوى اليك مهجتي والدمُّ دمع لغرامى شاهدُ
وطفتُ فى مغناك حتى مَلَّنى من أرضك الرسومُ والمعاهدُ
ولم أقصِّر فيك عن حفظ الهوي والحُرُّ من يحفظ مَنْ يعاهدُ

* * *

وربما يُجمَعُ جمعَ شملنا بكم وتصفو عِنْدك الموارِدُ
وَعلَّنا نقضى مُنانا بِمنى وتنقضى من وصلنا المواعدُ

* * *

أو لا فبموتى فيكمُ شهادةٌ علىَّ فيها بالرضى شَواهدُ
إلى كَمْ، رعاكَ اللهُ، تنأى وأقربُ وأرضى بما تجنى على وتغضبُ

فـلا أنتَ مـشك ان شكوتُ فـيشـتفي ... فـؤادى وان أعـتبْ فـمـا أنت مُـعْـتَبُ
تـكـلـفـتَ لـى ذاك الـودادَ فـلـم يـدمْ ... وكـلٌّ وداد بالـتـكـلـفِ يـصـعـبُ
ومَنْ يتكلفْ ضـد مـا هو طبـعـه ... تَعُـدْ نـفـسـه للطبعِ والطبعُ أغلبُ

* * *

يـقـولون هـندٌ لا تـدومُ وزينبُ ... على العـهـد، كُلُّ الناسِ هـندٌ وزينبُ
تـطـلـبـتُ ودًا لا يـكـون لـعـلـة ... فـأعْـوَزَنى وجـدانُ مـنـا أتطـلبُ
وحـاولتُ مَـنْ يوفى بعـهـدٍ فـلم أجـدْ ... كـأن الـذى حـاولتُ عنـقـاءُ مـغـربُ
تلطَّفْ فـإن اللطـفَ منك سـجـيـنةٌ ... تعطَّفْ فـإن العطـفَ منك مـجـرَّبُ

* * *

وان كـان لابُدًّا من الهـجرِ فـاتئـدْ ... لعـل رحـيلى عـن جنابـكُ يُقْـرِبُ
سـأرحلُ عنك اليـوم لامـتلـفتٌ ... بوجـهـى كـأنى خـائفٌ مـتـرقِّبُ
وأمـا ودادى فـهـو بـاقٍ وإن من ... بـقـاء ودادى أنـنـى أتـعـتَّبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ

وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ

« إبن أبى الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم إبن أبى الخير هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها شعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان إبن أبى الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى ، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكى تحتوى الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقى من عاصروا، أو تلوه من شعراء الفرس.

وقد درس إبن أبى الخير الفقه الشافعي، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكان يصلى بالليل والنهار ويصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف إبن أبى الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبى　　على لوح قبرى كان هذا متيما

لعل شجيا عارفا سنن الهوى　　يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن إبن أبى الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التى شدت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا سنورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للعربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: حدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز ببهجته وسناه
فقال: أنا وحدى الفائز به.. مادمتُ فى الوجودِ والحياةَ
فإنى أنا وحدى لعاشقُ والمعشوقُ والعشقُ فى منتهاه
وإني. أنا وحدى العينُ المبصرةُ والجمالُ الزاهى والمرآة!

***

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ
وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيب والشبابِ
فأنا فى إفاقتى أعاشرُ الأحبابَ وغير الأحبابِ
ولكننى متى سَكِرْتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحابِ!

* * *

حدثتُ طبيبى عن آلامى الكثيرةِ الخافية
فقالَ لى كُفْ الحديثَ ولا تتكلم إلا عن صفاته العالية
وحذارِ أن تفكرَ فى الدارِ الفانية أو الباقية

* * *

يا إلهى أنا فى عشرتى أرتجى عفوكَ ورضاكَ
وأنا فى ذلّتى أبتغى رحمتَك وندالكَ
ولنْ أفعلَ كسائر الناسِ فأحتَمِى بهذا وذاكَ
وليس من حامٍ ولا واقٍ فى العالمينَ سواكَ!

* * *

إنشودة الساقي..

تجلي وجـــه مـــحـــبـــوبي

وهـــذا كـــل مـــطـــلـــوبـــي

بـه صـــبـــري هـو الـواهـي

ومـــوتي فـــيـــه مـــرغـــوبي

« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا ـ لا يباريه أحد ـ للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه "تعطير الأنام في تفسير الأحلام"، الذي قام فيه بتفسير الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان ومكان، من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته «النابلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية، وجواهر النصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي، وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة، وايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معني المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معني قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي منتقص العارف مجيي الدين، والفتح الرباني والفيض الرحماني، والصراط المثنوي في شرح ديباجات المثنوي، وبداية المريد ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنابلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي ينشدها المنشدون في حلقات الذكر ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمةَ العشقِ فز بالبصر والسمع ... قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمعِ
نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمعْ ... من حرقة القلب قد سالت دموعْ الشمعِ

***

قوموا بنا كلنا نخرق حجابَ الطبعِ ونتّبع يا جماعة ما أتى في الشرعِ
حتى نشاهدَ جمال الله يلمع لَمْع ولا وجودَ لنا وهو الوجودُ الجمع

* * *

حبيبنا في بديع الحسن حيرنَا بين الحياةِ وبين الموتِ خيرنَا
حكم علينا وبالهجران غيرنا وبعد هذا بسوء الحال عيرنَا

* * *

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجيد اللالهية، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلي وجه محبوبي وهذا كُلْ مطلوبِي
فيا نار العدا ذوبي بعيداً عنك مشروبِي
جمال الأهيفِ الزاهي وحسن الأغيدِ الباهِي
به صبري هو الواهي وموتي فيه مرغوبِي
رأينا نورَه أشرقْ فكنا برقه الأبرقْ
ولا نجد ولا أبرق سوى الابريقِ والكوبِ

* * *

علينا الخمرُ قد دارتْ بها ألبابُنا حارتْ
وأطيار الهوي طارتْ بترتيبٍ وأسلوبِ
مليحُ الكون وافانا وزاد الحسنُ إحسانا
وحيّا يوسفُ الأنا فقرتُ عينَ يعقوبِ

* * *

ومع ذلك، تبقي رائعة «النابلسى» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقى» معا أعظم ما كتب من شعر لعذوبة ايقاعها ، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معًا كيف صاغ «النابلسي» أنشودته الخالدة:

ســـــاقي يـــــا ســاقـــــــي أســـقني من خـــمرةِ البـاقِـــي
وَاكْشِـــــفْ لـــي عن قيدِ إطـــلاقي آهٍ يا ســـــاقي، آه يا ســاقِـــي

* * *

أســـــــتارهُ راحتْ عـــــن عيـــني والزهـــرة فاحـــــــتْ
والســـــكرةُ بالأســـرارِ باحـــتْ آهٍ يا ســـــاقي، آهٍ يا ســـاقِـــي

* * *

اكشـــف لـــي عنـــــــكَ فـــي ذاتِـــي وافتـــحْ لي دنّـك
واجـــعلني يا حبِّـــي أنَّـــك آهٍ يا ســـــاقـــي، آهٍ يا ســاقِـي

* * *

افـتح لي بـــــابَ الحـــــانِ واســـمعني مـــن طيبِ الألحـــانِ
وارشـــفني مـــن كأسِي المـــلآن آهٍ ســـــاق، آه يا ســـاقـــي

* * *

مَـــنْ يشـــربْ يســـــــكرُ مـــــن خمـــري لمـــا يتفكـــرُ
ولامغـــــرور في عـــلِمه أنـكرُ آهٍ ياســـاقي، آه يا ســـاقـــي

* * *

لا يعـــــــرفُ أمـــــرئٌ إلا مـــن يشـــرب خمـــري
أحشـــاؤه تصـلي في جمـري آهٍ يا ســـاقي، آه يا ســـاقـــي

ظهرت لكل الكون..

وهومـــا طابَ عـــيشٌ لـم تكن فـيـــه واصـــلاً

ولـمِ يصـفْ، لا والله، أنَّي له يـصـــــفـــــو

عـــــــــزمت عـلـى أن أتـــركَ الـكـونَ كُـلـهَ

وأقـــفـــوا ســـبـــيل الحِب، والمجـبـــتي يقـــفـــوذ

« ابن عطاء الله السكندري »

علم آخر من أعلام الصوفية، وأبرز ممثلي التصوف المصري في القرن السابع الهجري. يتنسب إلي الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى القاهرة، بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسي سنة ٦٨٦هـ، بعد أن صحبه اثني عشرة سنة، وتلقى عنه الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسي، ثم استمع إليه، وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التسفير والحديث، له اليد الطولي في العلوم الظاهرة ، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي سنة ٧٠٩ هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون النثر الصوفي، وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجة العطائية» ، وتعد من روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا فى شعره الذي لطالما كان منبعا للزاهدين، وقبلة للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن ابتهال إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكلىَ محتاجٌ، وأنت لك الغنى ومثلي من يُخْطى، ومثلك مَنْ يعفُو

وأنت الذي أبدى الوداد تكرمًا ومثلُك من يرعي، ومثلي من يجفُو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً ولم يصفْ، لا والله، أنّي له يصفُو
عزمتُ علي أن أترك الكون كُله وأقفو سبيلَ الحبِّ، والمُجْتبي يقفُو

* * *

شهودكمويجلو الحجاب لأنه اذا حقّق التحقيق صار هو الكشفُ
وما أحسنَ الأحبابَ في كُلِّ حالة فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا
وإن الأولي لم يشهدوك بمشهدٍ قلوبُهم عن نيْلِ سر الهوي غلفُ
وأنت الذي أظهرَ ثم ظهرْت في جميع المبادي مثلما شهدَ العَرف

* * *

ظهرْت لكلِّ الكون، فالكون مُظهرٌ وفيه له أيضًا كما جاءت الصحُفُ
فأىّ فؤادٍ عن فؤادك ينثنى وأيةُ عينٍ بعد قربك لن تغفو
وأية نفْسٍ لم يُملها هواكمو على حُبّكم طُرًّا، نفوسُ الوري وقفُ
أيا صاحِ هذا الرّكبُ قد سار مُسرعًا ونحنُ قعودٌ، ما الذي أنت صانعُ
أترْضى بأن تبقي المُخلَّف بعدهم صريع الأماني، والغرام ينازعُ
وهذا لسان الكون ينطق جهرةً بأنَّ جميع الكائناتِ قواطعُ
وأنْ لا يرى وجه السبيلِ سوى أمرى رمى بالسري لم تختدعْهُ المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحقُّ قبْلهَا فغيّب مصنوعًا بمن هو صانعُ
بوادهُ أنوارٍ لمن كان ذاهبًا وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فـقم وأنظر الأكـوانَ والنورُ عـمّـهـا فـفـخـرُ التّـدانى نـحْـوكَ اليـومَ طالعُ

* * *

وكنْ عـبْـدَهْ ألْـقِ القـيـاد لحكمـه وإياك تـدبيـراً فـمـا هو نـافعُ

أتحكـم تدبيـراً وغـيـرُك حـاكمٌ أأنـت لأحـكـامِ الالـه تَـنـازعُ؟

فـمـحـو ارادات وكُـلُّ مـشـيـئـةٍ هو الغَـرضُ الأقصى فهل أنـت سامعُ؟

كـذلك سـار الأولـون فـأدركـوا على اثرهـمِ فَلْيـسَـر مـن هو تـابعٌ

على نـفـسـهِ فليـبْكِ من كـان طالبًـا ومـا لُمـسْتَ ممن يُـحبُّ لـوامعُ

على نفْـسـهِ فليْـبكِ من كـان باكـيًـا أيذهـبُ وقتٌ وهو بـاللهـو ضـائعُ

* * *

بالنور أشرقت..

يـا دولة الـعـــــز الـهـنـي الـســـــرمـــــدي

عـــــزل الـعـــــوازل لا يـزال مـــــــقـطـعـي

فـــمـــــتى أجـــرد ســـيف عـــزمي فـــاتـكا

ويـفـــــــــوز «حـلـمـي» رغـم أنـف المـدَّعِي

« ابراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية النيازية. التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي (عبدالقادر الجيلاني ـ عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ ـ ١٣٩٠هـ) كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.

وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ، ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه ـ كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي ـ المثل القائل «أطيب الكلام أصدقه». فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادري تذخر بها المكتبة الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.

ومع ذلك، يبقي شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنورأشرقت» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيِّدي أنت الغَياثُ ومَفْزَعي ... ولئنْ بدا للغير فهو تمنُّعي

لكم الولا ودخيلكمْ يشكو الضنا ... والعبد يكرم بالولاء الأرفعِ

وبكم عُرفتُ ولي لديكم حُجَّة ... تسمو علي فلك الوجود الشُّرَّع
والشمسُ تعلمُ أنني معهودكمْ ... ولها علوت وكان إمر تطلُّعي

* * *

وبها فسال الدمعُ مني تمدُّه ... زفراتُ قلبيَ واصطلامُ الهُلَّع
وبها فأرَّجتُ العطورَ يبثُّها ... خير الخلائق بالدعاءِ الأجمَعِ
منها علي الحالين كنتُ مناجيًا ... أهل الهوي والساجدين الطُّوَّعِ
وعلي المعارج سيِّدي أرقيتني ... وَخلوتُ بالبيتِ المشيدِ ولادَعي

* * *

أقرأتني قدمًا كريمَ خطابكمْ ... وبه انتشأتُ وكان أمنُ تضعضُعي
بالنور أشرقت الحروفُ وكنت لي ... عينا وقلبا واصطنعتَ مسامعي
وسيقتني كأسًا فهِمْتُ مناجيا ... ونظمتُ أروع ما يكون ومامعي
غذيتمو روحي وإنَّ فطيمكمْ ... حاشاه يسجد أو يقوم لُمْتَعِ
عذلٌ وتبريحٌ وأنَّهُ مُوجَع ... والصبر بعد بهائه لمْ يلمعِ
مَنْ للنزيل إذا شكا مِنْ غُصَّة ... الا الذي مِنْ بِرِّهِ لمْ يُمنعِ
ألفَ الدخيلُ مكارمًا من عطفكمْ ... وبها فقد طاب الشرابُ ومَرْتعى

* * *

والغيرُ ان مرَّتْ عليَّ فخاطري ... تأبي الرفيعَ ببُهْرجٍ وبأَرْقَعِ
صورٌ وأشكالٌ ومتعةُ ناظرٍ ... والوهمُ يخدع بالسرابِ وبلقعِ
ليتَ الغطاء عَنِ العيون تكشَّفت ... فيبين ما أَلِفَتْ نفوسُ الطُّمَّعِ
زرعٌ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ ... صَمَّاءُ عَنْ لحن الشَّجيِّ وسُجَّعِ

وعـوازلُ الأحـرارِ خلف زيوفـهـا كـالنَّازعـات الناشطات الهُـزَّع
يادولةَ العـزِّ الهنيِّ السـرمـدي عـزلُ الـعـواذلِ لا يـزالَ مُـقَطعَّى
فـمـتى أجـرِّدُ سـيفَ عـزمىَ فـاتكًا ويـفـوز حـلمي رغم أنـف المُدَّعى
سُـحِرَ الـفـؤاد بـلطفكم وجـمـالكم ولغـيـركمْ قـلبي وسـمـعىَ لـم يَعى
مـازلتُ أهتفُ والـهـيـام مـلازمى وعطـاؤكم مـهـمـا يكن لم أقـنعِ
لن أنـتـهـي حـتـى يكـون لوصلـكم قـبـلي الوفـاء لجُلَّسي والتُّـبَّعِ
فلقـد سـلوتُ ولستُ يـومًـا سـاليًـا يـا من بـهمْ أبـقى ويـفني مُـروَعِّي
جـئـتُ الرحـاب ونجـدتي بولائـكم والعُـرْفُ يقـضىَ بـالعطـاء الأوسعِ
عـارٌ اذا مـا الغـيـرُ يُبـدي مِنَّةً وعليكم حَـبَسَ الرجـاءُ تمتُّـعي

* * *

خُلْفُ الـوعـيـد فـشـأنكم يا سـادتي أمـا الوعـود فـأجـزَلُ وبأنفَعِ
والعـودُ يُحْـمَـدُ بالـلقـاء ووصلـه يا مَنْ بهمْ حـسُنتْ عـوائدُ مـرجـعي
يـا آل يـثـربَ يـا كـرامَ مـاذا جـرى لعـهـودكم وتضـرُّعي
فـبكمْ إلـي المولي الـعـزيز توسُّلي وبـكمْ عـلي الأبـواب رَنَّ تـوقُّـعي
بكـمُ التـوسلُ في الشـدائدِ والـندي منكـم يُسـابقُ كـالسـحـابِ السُّـرَّعِ

* * *

زُفُّـوا الأمـان إلي الكـئـيب فـانه خَـضَبَ المشـيبُ نواحـه بـالأيْدَعِ
ثويَ الـرجـاءُ بكـم وان بَعُـدَ المديَ فـأراه يـأتي بـالنوالِ الأمـتـعِ
منَّا على حـرم الحـبـيب تحـيـةٌ تزكـو كـمـا يزكـو السـجـودُ لرُكع
وَمـسَـلِّمـا برقـيـقـةٍ تحـدو بـهـا زمـرُ الملائك والطيـورِ السـجَّعِ

* * *

حسبي علوا..

لكن تنازع شوقي تارة أدبي
فأطلب الوصل لما يضعف الأدب
ولست أبرح في الحالين ذا قلق
نام وشوق له في اضلعي لهب

« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ إبن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين إبن الخيمي في اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر، حتى توفى سنة ٦٨٥ هـ

وقد سار إبن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن إبن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَوا عنا ومالوا إلي الغدرِ ... ومالزموا أخلاقَ أهلِ الهوي العُذرى
وبعد حلاوات التواصلِ والهوى ... جنوا مُرَّ طعم الهجرِ مِنْ عَلْقَمِ الصبرِ
اذا ما رجعتم عَنْ محبتكم لنا ... مشاةً رجعنا عن محبتكم نجري
وإن كنتمُ في الجهر عنا صددتمُ ... ففي سرِّنا عنكم نصدُّ وفي الجهرِ
سكنتم فؤادي مبرةً ورحلتمُ ... فأصبحَ منكم خالياً خالي السرِّ
وقال لي العذالُ هل أنت راجعٌ؟ ... إذا رجعوا عن غدرِهم قلتُ لا أدري!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهي، ويري الباحثون أن شعره الصوفي يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» إبن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يا مطلبًا ليس لي في غيرِ أربُ ... إليك آل التقصيِّ وإنتهى الطلبُ
وما أرانيَ أهلاً أن تواصلني ... حسبي علواً بأني فيك مكتئبُ.

* * *

لكن ينازعُ شوقي تارةً أدبي ... فأطلب الوصلَ لما يضعفُ الأدبُ

ولست أبرحُ في الحـــالين ذا قلق ... نامٍ وشـــوقٍ له في اضلعي لهب

* * *

ومدمعٍ كلما كفكفت صَيِّبَهُ ... صوتًا لذكرك يعصيني وينسكبُ
ويدّعي في الهوى دمعي مقاسمتي ... وجدي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا ... يزالُ في ليلِه للنجمِ يرتقبُ

* * *

يا صاحبي قد عدمت المسعدين فسا ... عدني على وَصَبي لا مَسَّكَ الوصبُ
بالله إن جزتَ كثبانًا بذي سَلَمٍ ... قفْ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكثبُ
ليقضي الخدُّ من أجراعها وطرًا ... في تُربها ويؤدي بعضَ ما يجبُ

* * *

وملْ إلي البان من شرقيِّ كاظمة ... فلي إلي البان من شرقيِّها أربُ
وكلما لاح معنى مِنْ جمالهمُ ... لباه شوقٌ إلي معناه مُنتسبُ
أظلُّ دهري ولي من حبهمْ طربٌ ... ومن أليم إشتياقي نحوهم حَرَبُ

* * *

لله قومٌ بجرعاء الحي غُيُبُ ... جنوا عليَّ ولما أن جنوا عتبوا
يا ربِّ هم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ ... وانهم غصبوا عيشي فلمَّ غضبوا؟
هم العُرَيْبُ بنجد مُذُ عرفتهمُ ... لم يبقْ لي معهم مالٌ ولا نَشَبُ
شاكون للحرب لكن من قدودهمُ ... وفاتراتُ اللحاظ السمرُ والقضبُ
فما ألموا بحيٍّ أو ألمَّ بهمْ ... إلا وغادرو على الأبيات وإنتهبوا
عاهَدْتُ في زمن البطحاء عهدي هوي ... إليهمُ وتمادتْ بيننا حِقَبُ
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا ... لكن لغيرىَ ذاك العهدَ قد نسبوا

* * *

من منصفي من لطيفٍ منهمُ غَنِجٍ ... لدنِ القوام لاسرائيل ينتسبُ

مُـبـدِّل القـول ظلمًـا لا يفي بموا عـيـد الوصـال ومنـه الذنبُ والغـضبُ
تُبـينُ لثـغـتُـهُ بالـراء نسـبَـتـه والمـينُ منـه بزور الـوعـد والكـذبُ

* * *

مـوَحـدٌ فـيـري كلَّ الوجـود له مـلكًـا ويبطل مـا يأتي به الـنسبُ
فـعن عـجـائبـه حـدِّثْ ولا حـرجُ مـا ينتـهي فـي المليحِ المطلقِ العـجبُ
بـدرٌ ولـكـن هـلالاً لاح اذ هـو بالـ وردىٌ من شـفق الخـدَّين منتـقبُ

* * *

في كـأس مـبـسـمـه من حلو ريقـتـه خـمـرٌ ودُرُ ثناياه لهـا حَـبَبُ
فلـفظـة أبدًا سكران يُـسـمـعنا من مـغـرب اللحنِ مـا يُنسى به الأدبُ
تجـنى لـواحظـه فـيـنـا ومنـطقـه جنـاية تجـتنـي من مـرهـا الضـرَبُ

* * *

حلو الأحـاديث والألحـاظ سـاحـرها تُـلـقـى إذا نـطـقَ الألـواحُ والـكـتبُ
لم تـبقِ ألـفـاظه مـعنىً يرقُ لـنا لقـد شكتْ ظلمـه الأشـعـار والخطبُ
فـداؤه مـا جـري في الدمع من مـهجٍ ومـا جـرى في سبيل الحبِّ مـحـتسَبُ

* * *

ويح المتـيَّم شـامَ البـرقَ من إضم فـهـزَّه كـاهتـزاز البـارق الخَـرِبُ
وأسكن البـرقَ من وجـد ومن كلف في قلبـه فـهـوَ في أحـشـائـه لهبُ
وكـلمـا لاح منه بـارقٌ بعـثتْ مـاءَ المدامع من أجـفـانه سُـحبُ
ومـا أعـادت نُـسيـمـاتُ الغـوير له أخـبـار ذي الأثـل إلا هزَّه الـطربُ
واهاً له أعـرضَ الأحـبـابُ عنه ومـا أجـدتْ رسـائله الحُسنى ولا القـربُ

* * *

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم انجذاباً ... لأسمع من جنابكم خطابا

فكم ليلٍ بقربكم تقضى ... إلي سحر سجوداً واقترابا

وكم من نشوةٍ وردتْ نهاراً ... فلا خطأ وعيتُ ولا صوابا

« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبدالقادر بن محمد (٩٧١ ـ ١٠٤٠هـ) الذى اشتهر بإبن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعلوا ذكرهم، وينتشر صيتهم ، ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قرونا من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبى الفيض فى مصر، زاد انتاجه الصوفى المتيمز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة فى التصوف أربعين كتابا أشهرها «نهج السعادة» ، و«الفتوحات المدنية»، ونفحة البان» ، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة فى أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى» ، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبى الفيض تدل على رسوخ قدمه فى التصوف والمعارف الالهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضى بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفى الروحانى، والرموز الصوفية المعروفة، التى تتجسد فى شعر الصوفية.

وها هى ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التى تروى جانبا من تصوفه، وما تعلقت به نفسه فى الحب الإلهى:

سقانى الحبُّ من خمرِ العيانِ ... فتهتُ بسكرتى بين الدنانِ

وقلت لرفقتى رفقاً بقلبى ... وخاطبتُ الحبيبَ بلا لسانِ

* * *

شربتُ لحبه خمراً سقانى ... كصحبى فانتشى منها جنانى

شَطحْتُ بشـــربِهـــا بين النـدامى ورشـــدى ضـــاعَ مما قـــد دهـانِى

* * *

فـــهـــام أولو النـهى من بـعـد سكرى وغـــابوا فـى الشـــهـــود عن المكانِ
مُـــرِيـدى! لا تخفْ واشطحْ بســـرى فـقـد أذن الحـبـيبُ بما حـيـانى

* * *

فـــأكـــرمنى وتوَّجنى بتـــاجٍ يـقـــوم بســـره قطب الزمـــانِ
وأمـــرنى على الأقطاب حـــتى سَـــرَى أمـــدى بهم فى كـل شـــانِ
وأطلعنى على ســـر خـــفى وقـال الســـتـر من ســـر المعـانِى

* * *

فهرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
	إهداء..	٤
	تقديم..	٥
١	شغلت قلبي ـ سمنون المحب.	٨
٢	يا واحد الحسن ـ عفيف الدين التلمساني.	١٤
٣	وارحمتا للعاشقين ـ السهروردي.	١٨
٤	الوسيلة ـ عبدالقادر الجيلاني.	٢٣
٥	مريضة الأجفان ـ ابن عربي.	٢٨
٦	إلهي ـ أحمد البدوي.	٣٢
٧	أطيار الجنان ـ جلال الدين الرومي.	٣٦
٨	سقاني محبوبي ـ إبراهيم الدسوقي.	٤٣
٩	تعشقت نور الله ـ الشيخ علي عقل.	٤٧
١٠	فطرة النفس ـ أبو العباس المرسي.	٥٣
١١	بحار الهوي ـ الحلاج.	٥٧
١٢	كيف السبيل؟! ـ الششتري.	٦٤
١٣	شكوي وجواب شكوي ـ محمدإقبال.	٦٩
١٤	كل المني ـ ذا النون المصري.	٩٣
١٥	مالي سواك ـ أحمد الحلواني.	٩٧

١٦	مجاهدة النفس ـ الإنطاكي.	١٠١
١٧	البردة ـ البوصيري.	١٠٥
١٨	سلمي ـ اليافعي	١١٨
١٩	كأسي وخمري ـ رابعة العدوية.	١٢٢
٢٠	ته دلالا ـ ابن الفارض.	١٢٧
١٢	ليلي ـ نجم الدين.	١٣٥
٢٢	لن أفعل كسائر الناس ـ ابن أبي الخير.	١٣٩
٢٣	إنشودة الساقي ـ النابلسي.	١٤٢
٢٤	ظهرت لكل الكون ـ ابن عطاد السكندري.	١٤٦
٢٥	بالنور أشرقت ـ إبراهيم حلمي القادري.	١٥٠
٢٦	حسبي علوا ـ ابن الخيمي.	١٥٤
٢٧	سقاني الحب ـ ابن قضيب البان.	١٥٨

عربية للطباعة والنشر
١٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

أجمل قصائد الصوفية

الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعا يدور حوله ، وفيه يصف الحب ولذته ، وما يجده من لوعة وأسي أو قرب ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال ، ومجاهدة مستمرة للنفس ، وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ، وسمو روحي .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين : شق يتعلق بحب الله تعالي للعبد . . واخر يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً انسانيًا خالدًا آملين من المولي عز وجل ان يحظي برضاك ، واستحسانك .

مجدى كامل

دار
قطاع الثقافة
١٤٧/٠٠